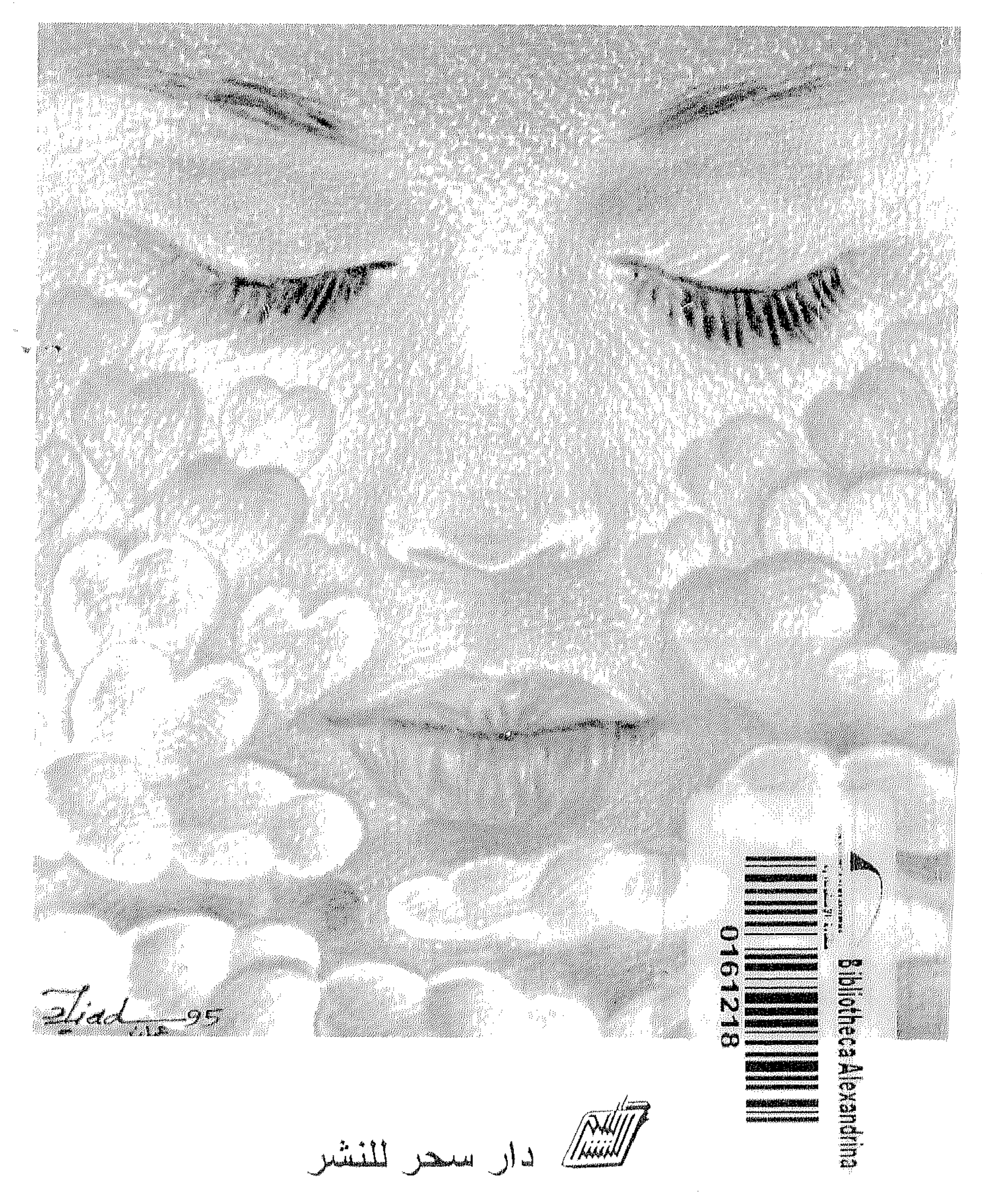
عبد الوهاب البياتي

خمسون قصيدة حب

اختيار وتقديم الدكتور

منصور قيسومة



دار سحر للنشر

عبد الوهاب البيّاتي

خمسون قصيدة حبّ

تقديم الدكتور منصور قيسومة

دار سحر للنشر

الطبعة الأولى جانفي 1997

عبد الوهاب البياتي،
النّضال والتّرحال والحبّ

تَقْصُر العبارةُ عن تقديم الشّاعر العراقيّ الكبيرِ عبدِ الوهاب البياتِي فتقتصر على رسمِ بعضِ ملامِحِهِ، وتختزل الدراساتُ والبحوثُ معانِي شِعرهِ دون أن تُفْصِحَ حقًّا عما كان يريد الإفْصَاحَ عنهُ. ويُحمّله بعضُهم مسؤوليةَ الشّاعر الملتزم وقد تحمّلها طوعًا، وهو يعلم علم اليقين أن مسؤولية الشّاعر الملتزم مسؤولية خطيرة، ولا أندر من الشعراء في زمن يُزعم فيه الشعر، ويُؤسّس فيه لشعراء أوهى من أن يتحمّلوا المسؤولية.

وقد كان البياتِي شاعرًا مناضلا أو شاعرًا ملتزمًا، وأَحقُّ معانِي الشعرِ الالتزامُ، ولئن حقد بعضهم على الشعر العربي الحديث فشكّكوا فيه، ولئن تردّت الإنسانية إلى خرافة قديمة حديثة تشيد بالأقوى، وتنسى أو تتناسى أن الشعر هو انتصار للضعيف واعتناق للمبادئ والصدق، زاعمة أنها القانون الفنّي الجديد، ولا قانون أقوى من العدل والحريّة والخير، ولا فنّ أعمق وأبلغ وأروع من فنّ ينبذ الفوضى، وتاريخنا الشعري ما كان مسْخًا، ولا كان تقليدًا وهذيانًا ولئن انفتح على الآخر فتأثّر به وأثّر فيه.

يقول جبران خليل جبران في نص من نصوص كتابه العواصف: الحياة بغير الحبّ كشجرة بغير أزهار ولا أثمار. والحبّ بغير الجمال كأزهار بغير عطر وأثمار بغير بذور... الحياة والحبّ والجمال ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلّة مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال (العواصف، ص.120) فنقول: الحياة بغير الشعر كشجرة بلا ثمارٍ، والشعر العربي بلا شعراء نعُدُّهم على الأصابع كالبياتِي والسيّاب والشابي... لحقّا كالثمار بلا بذور وكالأزهار بلا عطْرٍ.

ولد عبد الوهاب البياتي سنة 1926 في بغداد، وكانت دراسته الثانوية بها.

1944-1950- كان إلتحاقُه بكلية دار المعلمين العُلْيا ببغداد وتخرجُه فيها حاملا الليسانس في اللغة العربية وآدابها. وكانت إقامته في بغداد وهي الفترة التي اكتشف فيها حقيقة المدينة المزيّفة.

وعن تلك الفترة يقول البياتي: "لستُ أريد أن أضعَ تَعْرِيفًا للشعر ولست أهدف إلى تحديدِ مكانِ الشّعر من العَالَم، ولا مكانه من عصرنا، وإنما الشيءُ الذي أريده هنا هو تحديده من نفسي! فحينما بدأتُ أُعالج الكلمةَ، محاولاً بها أن أُعَبِّرَ عن انفعالي بالعَالَمِ، لم يكن الشّعْرُ هو أوّلُ ما حاولته من أشكال الكتابةِ.

لقد كتبت القصَّةَ القصيرةَ، وكثيرا من الحوَاريَّاتِ القصيرةِ والقصائد أيضا. ولكن شيئا مَا كان يُلِحُّ في طلب

التعبير عَنْهُ، شَيْئًا كان يجول بنفسي، وُلِدَ حينما بَدَأْتُ، للمرّة الأولى إقَامتِي في بغداد. كنت قادِمًا من الريف حيث عشت فيه، وعائدًا إليه، وقادمًا منه حتى عام 1944 وهو عام دخولي دار المعلمين العُليا، وكانت الصّدمةُ الأولى حين اكتشفتُ حقيقةَ المدينة. كانت مدينةً مزيّفة قامَتْ بالصّدفةِ وفُرِضَتْ عَلَيْنَا. لم تكن تَمْلك من حقيقة المدينةِ أكثرَ من تشبُّهِهَا ببهلوان أو مهرّج يُلْصق في ملابسه كلَّ لَوْن أو أيَّةَ قطعة يصادفها. أما أعماقُ المدينة الحقيقيةِ التي عاشتْ قرونًا عديدةً على ضفاف "دجلة" وَوُلِدَتْ وعاصرَتْ حضاراتٍ عظيمةً، فقد شَعرتُ بأنها مَاتَتْ واختفتْ إلى الأبد."

1950- صدر ديوانه الأول "ملائكةٌ وشياطينُ" الطبعة الأولى في بيروت.

1954- صدر له ديوان: "أباريقُ مهمشةٌ"، في طبعته الأولى ببغداد.

1950-1953- اشتغل مدرّسًا في المدارس الثانوية، وفي هذه الفترة عرفت حياتُه أحداثًا مختلفةً منها اشتراكُه في تحرير مجلّة الثقافة، واغلاقُ المجلّة وفصلُه من وظيفته في عشية دخول العراق إلى حلف بغداد، واعتقالُه في معسكرات الاعتقال السعيدية ومغادرتُه العراقَ إلى سوريا ثمّ بيروت، ثمّ القاهرة.

1955- صدور "أباريقُ مهشمةٌ" في طبعته الثانية

وفي نفس السنة ظهر كتاب "عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي للدكتور إحسان عبّاس" ، بيروت.

1956- صدور "المجد للأطفال والزيتون" في طبعته الأولى، القاهرة.

وكانت إقامته في القاهرة بعد العدوان الثلاثي. وهناك اشتغل محرّرا في جريدة الجمهورية.

1957- صدور "أشعار في المنفى" الطبعة الأولى في القاهرة.

1958- زار النمسا لتمثيل البلاد العربية في مؤتمر الكتّاب والفنانين العالمي الذي عقد في فينّا بدعوة من مجلس السّلام العالمي.

وزار الاتحاد السوفياتي قبيل الثورة العراقية بدعوة من اتحاد الكتّاب السوفيات. التقى بالشاعر التركي ناظم حكمت وتوثقت صداقتهما.

عاد إلى العراق بعد قيام ثورة تموز 1958 وأسندت إليه مهمّة مدير التأليف والترجمة والنشر في وزارة المعارف العراقية.

انتخب عضوا في الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء العراقيين.

- صدور "أشعار في المنفى" في طبعته الثانية، ثمّ صدوره باللغة الرّوسية في موسكو عن دار الطبع والنشر للآداب الأجنبية.

- صدور كتب مختلفة تتحدّث عن البياتي وتدرس شعره: منها: "عبد الوهاب البياتي رائد الشعر الحديث" لمجموعة من المؤلفين، "البياتي من خلال ديوانه: أباريق مهشمة"، رسالة جامعية لنجاة عامودي (الجامعة السورية 56-57).

1959- ترجمة كتاب "أراغون شاعر المقاومة" لمالكولم كولي وبيترك. رودس مع أحمد مرسي، وصدور ديوان "عشرون قصيدة من برلين" استوحاها الشاعر من زيارته لألمانيا الديمقراطية.

1959-1964- أقام في الاتحاد السوفياتي: وفي سنة 1961 ترك العمل في السفارة واشتغل أستاذا في جامعة موسكو ثم باحثا علميا في معهد شعوب آسيا التابع لأكادمية العلوم السوفياتية. وفي تلك الفترة زار معظم جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا ومعظم أقطار أوربا الشرقية والغربية والدول الإسكُنْدِنافية.

1960- صدور ديوان :"كلمات لا تموت" في طبعته الأولى في بيروت.

1961- صدور "أشعار في المنفى" باللّغة الاوزبكية بجمهورية اوزبكستان السوفياتية.

1962- مثّل العراق في مؤتمر السّلام العالمي لنزع السلاح، الذي عقد في موسكو.

1963- ظهور مسرحيّة :"محاكمة في نيسابور"، في ثلاثة فصول، بيروت.

وظهرت "أباريقُ مهشّمةٌ" باللغة الصّينية، "وقمر أخْضَرُ" باللغة الروسية، موسكو، دار نشر المطبوعات الشرقيّة.

وفي تلك السّنة أسقطت عنه الجنسية العراقية وسُحِبَ جوازُ سَفَرِه.

ولقد أُعِدَّتْ عن البياتي بحوثٌ جامعيّةٌ منها "عبد الوهاب البياتي: شاعرا ومناضلا"، رسالة جامعية لقاسم نسيموف، جمهورية تاجكستان الاشتراكية السوفياتية 1962-1963، وعبد الوهاب البياتي، حياته وأعماله الشعريّة، رسالة جامعية للآنسة ألميرا علي زاده، جامعة باكو، جمهورية أذِربيجان السوفياتية 1962.

1964- صدور ديوان " النار والكلمات" الطبعة الأولى، بيروت.

1965- صدور "سفر الفقر والثورة" في طبعته الأولى، بيروت.

1966- صدور "أشعار في المنفى" في طبعته الثالثة، بيروت.

صدور "الذي يأتي ولا يأتي" في طبعته الأولى، بيروت.

- صدور أشعار في المنفى، باللغة اليوغوسلافية، بلغراد، دار الطبع والنشر للآداب والفنون الأجنبية.

- صدور "الإنسان المعاصر في شعر عبد الوهاب البياتي" لمجموعة من المؤلفين منهم: ناظم حكمت، محمود أمين العالم، عزالدين اسماعيل، غالي شكري، القاهرة، 1968.

أُعيدت إليه الجنسية العراقية وجواز السّفر.

- صدور "الموت في الحياة" في طبعته الأولى

- صدور "تجربتي الشعرية"

1969- صدور "بكائية إلى شمسِ حزيران والمرتزقة"، بيروت.

1970- صدور " الكتابة على الطّين" و"يوميات سياسي محترف"

زار العديد من البلدان مثل المغرب وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا، وألقى فيها العديد من المحاضرات.

مفاد القول أن أعمالَ البياتي الشعرية كثيرةٌ ومتنوّعةٌ وغزيرةٌ، وكلُّ عمل من هذه الأعمال يمكنُ أن يكوّنَ موضوعَ دراسةٍ أو دراساتٍ. ولقد أُنْجِزَتْ بحوثٌ عديدةٌ عن الشاعر وشعره ونضاله، وأهمُّهَا البحُوثُ الجامعيّةُ والأكادمية، في بلدان مختلفة وبلغات مختلفة. وما ترجمةُ أعمال عبد الوهاب البياتي إلى اللغات الأجنبية إلاّ دليلٌ على قيمتها، وما كثرةُ البحوثِ في شعرهِ إلاّ برهانٌ على عُمْق نظره وسموّ فنه، وتجاوُزِهِ لجلّ التجاربِ الشعرية العربية المألوفة والمعروفة،

فالبياتي شاعرٌ وأديبٌ بالمعنى العربي القديم، وإنه لمن طينة القدامى رغم حداثته، يتميّزُ بغزارة تأليفهم، وتنوّع أغراضِهم ومواضيعهم، ويتّسم مثلَهم ببعد النَّظَرِ والرّغبةِ الملحةِ في التجديد والتجاوز، وهو إلى كل ذلك يعيش شعره ويجسّمه، أو يجسّم مبادئ الشاعر الصادق النبيل، دون أن يتخلّى عن مُتطلّبَاتِ الفنّ الشعريّ، والبياتي صورة مشرقةٌ حيَّةٌ للمبدع العربيّ الحديث، ودليلٌ قاطع على عمق ذلك الإبداع، ولئن حاول بعضُهُمْ التشكيكَ في الشعر العربيّ والقريحة العربية متحدّثين عن مجرّد النسج والنظم على منوال الغرب، ولئن تدهورت بعض مقولات الشعر ومفاهيمه في أيامنا هذه، فتدهور الشعراء بذلك التدهور.

لقد بدأ عبد الوهاب البياتي حياته الشّعرية **رومانسيّا**، أورومانتيكيّا حالما، كما يقول بعضهم. ولكن رومانسيته لم تكن بمعنى المذْهَب المُعْتَنَقِ، أو التيّار الفكريّ الذّي اختاره الشّاعر، ولا بمعنى الاتّجاه الأدبي الذي يخفي خلفيّة سياسيّة، ولكنَّ شَأْنَهُ في ذلك، كان شأن الشعراءِ العرب الجدُدِ الّذين قبل تمذهبهم أو تحزّبهم كانوا ينشدون الفضيلة والمُثُلَ العلْيَا والمبادئَ السامية، وكانوا يحلمون حلم الإنسانِ البريء القريب من الطبيعة أو الذي ينشد التوحّد مع الطبيعة، واسترجاعَ عالم الطفولةِ ومعانقةَ الأزمنة الغابرةِ والغامضة والسّحقيةِ. لذلك سميت هذه المرحلة لدى هؤلاء الشعراء بالمرحلةِ الرومانسيةِ، وماهي بالرومانسية فعْلاً إذ كانت تعوزُها الخلفيّة الفكريةُ والسياسية، أو بالأحرى

كانت رومانسية على مستوى الكتابة، بل إنّا لنَذْهَبُ أكثرَ من ذلك، فنقولُ حتى الشعراء الذين يُعَدُّونَ شعراءَ رومانسين ليسوا في الحقيقةِ رمانسيين إلاّ بالكِتَابَةِ والتأثرِ، ونستثني من بين هؤلاء طبعًا علي محمود طه، والشّابّي، وجبران خليل جبران. وإنا لنفسّر الظاهرة الرومانسية، أو التجربة، أو المرحلة الرومانسية لدى شعراءَ لا يمكن أن نعدّهم من الرومانسيين مثل بدر شاكر السيّاب وعبد الوهاب البياتي، بطبيعة الشعر لديهما خاصّة في مرحلة الظهور الأولى، إذ كان ملتصقا بالطبيعة، أو بالأحرى بالريف العربي، وبالمنازع الذاتية الأولى، وبالصدى الذي وجدَهُ هؤلاءِ الشعراء في معاني الرومانسيين الغربيين وصورهم، وكذلك بالتطابق بين التّمثلات الرّمانسية الكبرى، وبين مَطمح الشّعوب العربية المستعمرة في فترات نضالها: وتلك المطامح هي الحريّة والانعتاق، ولكن بطريقة مازالت تسيطر عليها فكرة الجبّار المنتَظَر، أو "الجبار الرئبال" كما يسميه جبران خليل جبران.

لذلك فإن رومانسية عبد الوهاب البياتي تبقى مجرّد طريقة فنّية يلجأ إليها الشاعر في حالات الحزن والضعف، أو مجرّد استفاقةٍ شعرية أولى على الطّبيعة والجمال والحبّ والموسيقى، أو مجرّد إحْسَاسٍ بالغرْبة والنّفي.

فالتّجربة الرّومانسية الأولى لَدَيْهِ تُعْتَبَرُ تجربةً مُمَهِدَّةً لتجارُبَ أُخرى أهمَّ، ستَقْلِبُ بدورها العديدَ من مفاهيم الشعر العربيّ الحديث، وستؤسّس لتجارب شعرية أعْمَقَ، ولنضال

شعري يريدُ أن يتجسّمَ على مستوى الفعل الثوري ويحاول أن يُنْزِلَ الكلمة الشعريةَ من عالمها المثالي، أو الرومانسي الحالِمِ والغامض إلى مستوى الواقع. وأهمّ تلك التجارب هي التجربة الواقعية الاشتراكية التي تواكب لدى الشاعر خروجًا من عالم السّذاجة والبراءة والخرافة إلى عالم المبادئ والقوانين العلمية والسياسية، والنضال بمعنى الانتماء والالتزام.

لكن القصيدة لدى عبد الوهاب البياتي، وهي تَدْخُلُ مرحلتها الأساسية، أو تجربتها العميقة، لا تتخلّى كليّا عن جذورها الرومانسية، إذ تلجأ إليها على مستوى الإلهام والإيحاء والصورة الحالمة التي غالبا ما يستعملها الشّاعر في مقدمات قصائده، ويُخْضعها لخدمة غرضه الملتزم فكريّا وسياسيّا. لذلك فإن موقف البياتي من الرومانسية موقفان: موقف إيجابي إذا ما تحدّث عن الرومانسية باعتبارها مجرّد طريقة فنيةٍ، وموقفٌ سلبي إذا ما تحدث عنها من زاوية نظرهِ الملتزمة، أي بعد أن أصبح ملتزمًا بقضايا وطنه السّياسيّة، وقد كان يَنْعَتُ الرومانسية إذاك "بالانغلاق على الذاتِ وبالتفاهة".

ولقد كان البياتي في فترة التزامه يقسّم الشعراء قسمين: قسم مضطلع بالمسائل الجوهريّة، ومناضل ومسؤول، وقسم يكتفي بالتعبير عن قضايا "الأنا" وهو يعبّر عن المضمون الشعري البورجوازي.

والمسألة الجوهرية عنده أو أمّ المسائل هي أن يلتزم الشاعر بقضايا وطنه وأن يكون عاشقا لذلك الوطن وألا يبخل

بدمه في سبيل معشوقِه، ولقد اختطفت بغدادُ قَلْبَهُ كما يشهد بذلك شاهده لجلال الدين الرومي من مقدّمة ديوانه.

فالبياتي كما يتجلّى في شعره يعشق العراق، وفيَ العراق يعشق بغداد وبابل، وفي بابل يعشق الانسانية والانسان، ويطمح إلى الأسمى ويربط الحاضر بالماضي ويفتحُهما على المستقبل المنشود.

والبياتي يمثل كما يقول هو، جيلا كاملا :"متسوّلا قد استعار ثيابًا وأزياء من كل عصر حتّى فَقَدَ شخصيّتَهُ وصوتَه الحقيقيّ، فكان شعورُهُ بالانفصامِ والتّناقض بين الفكر السّائِدِ والواقع القائِمِ، وكان ذلك الشعور نابعًا من شعور طبقي سابقٍ وحادٍّ، ومن إحْسَاسٍ بفقدان العدالة وانقلاب الأوضاعِ". ولقد زَادَ ذلك الشعورُ في نفسِ البياتي حدّةً باطّلاعه على الكتّاب الروسِ الكلاسيكينَ العظامِ، أمثال: تولستوي وتشيخوف ودستوفسكي والكتّاب الغربيين أمثال إليوت وبيرون وشيلي وكيتس وبودلير ورامبو وفكتور هيجو، وهي التجربة التي ساعدته على تخطّي مرحلة التأثّر بالأعمال الأدبية الرومانسية.

وكان البياتي يشعر بالمفارقة المرّة والقاسية بين ماض العراق المجيد التليد وحاضره في الفترة التي بدأ يكتُبُ فيها شعرَهُ، وهو ما جعله يثور ثورته الأولى : وهي ثورة فكرية وأدبية ضدّ الرومانسيين من جهة، وثورة سياسية واقعية ضدّ الأنظمة الرجعية المتخلفة. وهو يعبّر عن ثورته الأدبية قائلا:"لم يستطع واحد من شعراء هذه الفترة من العرب أن

يَلْفِتَ نظرنا، فحتّى جبران تصوّرته كاهنا عجوزًا يَلْبَسُ مَسُوحًا سوداءَ، ويذرف الدّموع أمام جثّة ميّتة. كان أدَبَهُمْ ثورة عاطفيةً رومانسية أكثر منه تعبيرًا عن ولادة الجيل الجديد من خلال الأزمة، وسنواتِ العذاب".

لكن تَنَكُّرَ عبد الوهاب البياتي للرومانسية لم يمنع شعره من أن يكون "تعبيرا عن حركة نفسه الداخليّة". أما التنكّر للواقع المتردّي فقد بدأ بحركة تمرُّدٍ شعريّةٍ تحاول أن تطابق بين التمرّد الأدبي والتمرّد الإيديولوجي .

ولقد أثّرت صور الواقع في عبد الوهاب البياتي وفي شعره تأثيرا عميقا:

يقول : "لقد بدأت معرفتي بالعالم في الحيّ الذي نشأت فيه ببغداد بالقرب من مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني وضريحه، وهو أحد كبار المتصوّفة. كان الحيّ يعجّ بالفقراء والمجذوبين والباعةِ والعمّالِ والمهاجرينَ من الرّيف والبورجوازيينَ الصّغارِ. كانت هذه المعرفةُ هي مصدر ألمي الكبير الأوّل".

غير أنّ الواقع، كما يتجلّى في شعره كان **واقعًا متغيّرا ومتجدّدا** باستمرار. ولقد أعانهُ على ذلك التجديدِ والتغيّر سفرُه الدائمُ وترحالهُ المتواصل. **وهو ما جعل من عبد الوهاب البياتي شاعرا رحّالةً بكلّ معاني الرحلة والارتحال** في العصر الحديث، وهو ما طَبَعَ شعرَهُ بطابعٍ إنساني يتلاقى فيه الشمالُ والجنوبُ وتُخْتَزَلُ فيه مأساةُ الانسان في علاماتٍ ورموزٍ

كونيةٍ تتطلب لفهمها ثقافةً عميقةً ورؤية شاملة، يلمّ فيها صاحبُها بدقائِقِ الأمُورِ والأشياءِ، ويحسُّ فيها بتواصل الزّمن، وبما تركه الماضي في النفس البشرية من صدى عميقٍ لكلّ التجارُب الماضية والحضارات الدّارسة، وللزمن السحيق وقد تبلور في الشعر حنينًا غامضا وشوقا وتحرّقًا، وتوقا إلى ملامسة المعاني الإنسانية الأولى.

لذلك كانت تجربةُ البياتي الشعريةُ وطيدةَ العلاقةِ بالتّاريخ، بل إن الخلفيّةَ التاريخيةَ في ذلك الشّعرِ هي الخَيْط التناسقيُّ الأوّل الّذي يربط بين العوالم المختلفةِ التي يبتكرها الشاعِرُ. وهي تعبير عن طموحه إلى معانقة كلِّ التّجَارُبِ الانسانيةِ منذ أن بدأ الانسان يعي وجوده، أو منذ أن كان الإنسان شاعرًا، ذلك إذا وسَّعْنَا مفهومَ الشعر فاصبحَ يعني النِّظرةَ إلى الكونِ والوجودِ بطريقةٍ شعريّةٍ، ولا مجرّد الكلام الشعريّ المنظوم.

غير أن الواقع يبقى المشْغَلَ الرئيسي في شعر عبد الوهاب البياتي ولقد تأثّر في التعبير عنه بالعديد من الواقعيين العالميين مثل غوركي، وببعض الوجوديين مثل سارتروكامو، لكنّ كلَّ ما يهمّه من الواقع هو كما يقول :"**الإصرارُ على الحرّية** وتجسيدُ صورة الثورة المستمرّة من جانب الإنسان، ورفضُ التفاهةِ والسّطحية والمجانية واللامبلاة". وهو في كلّ ذلك يرجع إلى الشعراء العرب القدامى مثل طرفة بن العبد، وأبي نواس والمعرّي والمتنبّي والشريف الرّضيّ، إلاّ أنه كان

"يحس بأن الشكل الذي لم يستطيعوا تجاوزه كان قيدًا على رؤاهم وعواطِفِهم المتمرّدة". وزاد في تعميق ذلك الاحساس "فَهْمُه لموسيقى الشعر المرتبطة بنوعيّة التجربة الشعرية وعمقها.

وهو ما دفعه إلى البحث عن إيقاع موسيقيّ خارجيّ يتفق مع ايقاع التجربة الجديدة. ولقد أعانته على استبطان التجربة قراءته واطلاعُه على التّجارب الصّوفية مثل تجربة الجامي، وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطّار والخيام وطاغور. وكانت كلُّ تلك التجارب متغذّيةً بقراءاتٍ لشعراءَ معاصرينَ ومحْدثين مثل نيرودا وإيلوار وناظم حكمت ولوركا والذين لفتوا انتباهه باستعمال الموسيقى والصورة والرؤية وسائِلَ للنفاذ إلى وجدان الإنسان المعاصر، وبالتزامهم بقضايا بلدانهم. وبذلك كانت غايةُ البياتي الأولى هي أن يجمع بين فنّية الشعر وفنونه وبين مضمونه المتلزم. فكانت "ثورته على الشكل الشعري، وكان تمرّدُه الميتافيزيقي على الواقع جملة".

فلقد أصبح الموت لديه، كما هو لدى السيّاب، موتين: الموت المجانيّ، أو الموت الصّدفة وهو الموت الذي ثار عليه الشاعر ونَبَذَهُ واحتقره، والموت الذي يُدفَعُ ثمنا للحريّة، وهو الموتُ الذي يتغنّى به ويمجّده أو هو الموتُ البَعْثُ أو المعجِزة، موت المناضل والشهيد. وهذا الموت يظهر في مجموعة "النار والكلمات"، وفي "سفر الفقر والثورة" و"الذي يأتي ولا يأتي".

أما صراعُ الإنسان لدى البياتي فيكتسي صبغةً وجودية :
فهو صراعُ الإنسانِ الضّعيف العاجِز يواجه مصيره ويتحدّى قوى النفي والعدم: وهو المعنى الأول للصراع. أما المعنى الثاني فهو صراع الفقراء العراةِ والمحرومين ضدّ الطّغاةِ وقُوى الاستعمار والتسلط.

ومفهوم الصراع مرتبط عنده بمفهوم الغُربةِ والنفي، إلاّ أن معناهما الحقيقيّ ليس في الابتعاد عن الأرض وإنما في فقدان الحرية "ومواجهة موْتٍ جديد مع كلّ منفى جديد". وهو ما يكسبُ الغربةَوالنفيَ بُعْدًا خرافيا وأسطوريّا، بل إن حياة البياتي من بدايتها إلى يومنا هذا إذا ما امْتَزَجَتْ بتجربتهِ الشعرية تصبِحُ حكايةً رائعة أو أسطورةً مذهلة، رغم كلّ ما قيل عنها وما يمكن أن يقال فيها، ورغم أن بطل تلك الاسطورة ليس بطلا ولا نبيّا بل ينبذ البطولة والنبوّات الزائفةَ ليكون مثال الانسان المتواضع والضمير الواعي المسؤول. إنّ مسيرة البياتي الشعرية والنضالية أسطورة تقلب معادلات كل الأساطير القديمة لأن أبطالها هم المستضعفون والفقراء، وكل معادلات الاسطورة الحديثة المبنية على منطق القوّة والعنف وتمجيد الذّات وطغيان "الأنا".

لكنْ إذا كان البياتي يدحض أسطورة التسلّط والسّيطرة، موظّفًا الأساطيرَ أسلوبًا فنّيا، فهو يحاول في شعره، وعبْرَ ذلك التوظيف، أن يُقدّم للعالَم وللإنسانية بديلا أسطوريّا قديما حديثا، وغابرًا فتمتجدِّدًا: ألا وهو الحبّ أسطورة، والحبّ مقولة

ومفهومًا، ولغزًا أبديًا، يسمو فيتعقد بتعقد الحضارة وتعقّد الرّوح الإنسانية.

وللحبّ خرافاتٌ وحكايات، وقصص وأساطيرُ، وأشكال لا تُحصى ولا تعدّ في العراق وبغداد، مهد التشكّل الحكائي العربي والإسلامي المذهل في "ألف ليلة وليلة". فهل كان البياتي يُعيد ذلك التشكّل شعرا، وكأنّ قِسْمًا من شعره غدا حكاية من تلك الحكايات، وكأنّ حياتَه، في أفراحها وأتراحِها، غدتْ سلسلةً من مغامرات أبطالها، وقصائده تعجّ بِـ"كانَ ويامـا كان في سالف الأزمَان..." وقد قضى فيها الشاعرُ، مهرّجُ السّلطان، أيام عمره يداعب الأوتار ويمشي فوق حدّ السّيف والدّخان."

وللحبّ في شعر البياتي صور مغرقة في القدم، وصورٌ أخرى أحدثُ من الحديث تجعلك مغرّبا بين عوالم ثلاثة: العالم القديم، والعالم الحديث، والعالم الشعري والفنّي الجامع بينهما، وهو العالم الذي يأخذك بسحره فيخلصك من أسر الواقع، ومن سجن التجربة الذاتية. كما للحبّ في شعر البياتي، متعة التناقض الشعرية الحكائية تمامًا كما في "ألف ليلةٍ وليلة"، ومتعة التناقض الإجتماعي الذي يجد الكادح والفقير والمتسوّل، في صوره الشعرية صدى لذواتهم المقهورة ولما يطمحون إليه من رفعةٍ وسموّ وتوقٍ إلى النّور والأفضل، كلّهم رمز الفتى العربيّ السّاذج والبريء، والمتفيّء تحت النخيل كما يقول السيّاب، و"الحالم بابنة السلطان على ضفاف نهر صوتها

وصمتها" كما يقول البياتي. وقد يسحره موتُها سحْرًا شعريًا ورومانسيًا لا مثيل له، فيغدو الموت طموحًا، وتجسّما للعاطفة الخالدة، مذكّرا بكل معاني الحبّ لدى العرب، في أدبهم وخيالهم ولاوعيهم. والبياتي شأنه شأن الشعراء العرب المحدثين، وفيّ لنظرية الحبّ لدى العرب، يفتنه الهيام والتيه والجنونُ بالمحبوب، والتغنّي بذلك الجنون شعْرًا. وقد يردّ الشّعْرُ صواب المجنون، وقد يضاعف جنونه فتغدو القصيدة قبْرًا له، ولكلّ المحبّين المجانين في العصر الحديث، فإذا الحبّ رمزُ الحلم بالطفولة، والحلم بالزمن الغابر، زمنَ الكهولة ومعانقة المطلق قبلها وبعدها، وأبعد منهما، وما بين بين.

لكنّ للحبّ لدى البياتي سرًّا دفينًا، ولُغْزًا لا حلّ له، وأفاقا غامضة، ما أشرقت إلا لتظلم، وما أظلمت إلا ليحلم فيها بالنّور والشمس: تلك الآفاق التي يتعانق فيها الحبّ والسّلطة والسياسة. فهل يكون الحبّ مدْخلاً لهما، أم أن الحبّ هو جوهر الأشياءِ ولبّها، فإذا الحبيبة ووجْهها رمزان أبديّان للوطن والحريّة، وإذا التوحّد بين الشاعر والوطن بلوغٌ، والصّراع من أجله مقصدٌ وغاية، والبوح بالأسرار دروبٌ إليه، والإبتعاد عنه هجر وموت وقتل، أو نأي ونفي، والشاعر كالمتسوّل يسعى "إلى مدنٍ بلا فجرٍ، ينادي باسم الوطن في شوارعها، ويسأل عنه الريح فيجاوبه الظّلام والسّكون، وترتد إليه الصّور في المرايا موتًا وعقْمًا. فلا الترحال يتوقف، ولا الحبّ يَفْتُرُ،

و"الشّاعر من منْفى إلى منفى، ومن باب لباب، يذوي كما تذوي الزنابق في التّراب."

فالحبّ لدى البياتي خالد لا يموت، متجدّد بتجدّد الزمان والمكان والتجارب، يقتله النسيان، ويحييه التذكّر، كما لدى السّندباد في كل رحلة، فإذا الشاعر يستعيد من مدريد ماعاشه في بغداد، ولن تغنيه مدريد، و"لن يحول بينه وبين وطنه الضّبابُ."

ويتطوّر الحبّ لدى البياتي، فيخرج عما هو ذاتي، وعما هو موضوعي ليعانق الأسطوري، فإذا الحبيبة عشتروت تبكي على الفرات، تبحث في مياهه عن خاتم ضاع، وعن أغنية تموت، تندب تموز..." لكنّ الشّاعر لا يكتفي بالرموز الأسطورية الكونية، فيبني أساطيرَه الخاصّة، الذاتية والعراقية والعربية ويستلهم مضمونها من تجاربه وتجارب وطنه، ومن الرصيد الأسطوري العربي، ومن بعض الرموز الأدبية العربية والإسلامية المعروفة. فإذا بعائشة، أهمّ تلك الرموز تجمع في وجهها وملامحها وشخصها بين الواقعيّ والخارق والمذهل، والطقوسيّ والدينيّ والأسطوري، وتختزل جملة التقاطعات الفنية بين تلك الرموز والمرجعيّات، وإذا بها رغم تجلّيها، حقيقةً، أو خيالا ووهْمًا، ورغم انبثاقها في القصيدة معنى مغريا برمزيته وأسراره، وتجريده وتجرّده، تفسح ولا تفصح، وقد تفصح فتزيدَ القصيدةَ إغراءا بها، وغوايةً بمالا يقدر القارئ على التخلّص منه، كأنها السّحر، وهي منه أقربُ

إلى ما يسحر به البياتي شعْرًا، ولا سحرَ أعمق وأغوى من سحر المرأة الرمز، تلك الّتي لو أفصحنا عن بعض معانيها لسقطنا في المحظور، ونحن بها أولع ممّا هي بنا، وقد ناجاها البياتي وغازلها كما يغازل نجمةً، وتبعها كما يتبع سرَابًا خلّبًا، وهي تتبدّى وتتأبّى، فلا هي مغدقة ولا هو ظافرٌ، وقد أغدقت عليه الشّعر، ومابه يكون شاعرًا، وبه يتفوّق رغم الهزيمة والشعور بالمرارة، وهو إليها متحوّل، "يده جناح طائر، ومجذاف يقود إلى حارسة الأموات، حيث لا أبواب تفتح، ولا أبوابَ تغلق، وحيث عائشة عادت إلى بلادها البعيدة قصيدة فوق ضريح، وحكمـةً قديمـةً، وقافية يتيمة، وصفصافة تبكي على الفرات، عارية الأوراق..."

وجلّ وجوه الحبّ ورموزه لدى البياتي، مبنية إنبناءا أساسيّا على معاني التحوّلات والمسخ، وعلى تواتر تلك المعاني، وتناسلها من بعضها، كما يكون التناسل بين الخلايا ليكون بها سرُّ الحياة وسرّ القصيدة.

والبياتي يجمع في تصوّره الحبّ والعاطفة الإنسانية عامّة، جلّ المعاني في معنيين روما نسيين: هما عنصر المأساة العاطفية الرومانسية، وهما قوام الشّعر والحياة، وقوام الصراع الأبديّ والطموح المستتبّ: هما الجمال والموت، أو بصورة أخرى الرائع والجنائزي. ولكم جمع الرومانسيون العرب بينهما، لتقَابُلٍ بين التأويل الحديث، والتأويل القديم، أو لأنّ الحديثَ يذكّر بالقديم، وللتقاطع الحادث بينهما في الوعي

وفي اللاّوعي. ولا شيء أعمق من علاقة الجمال بالموت في الرومانسيّة. لكن غاية البياتي في الجمع بين النقيضين، لم تكن للكشف عن كنه الموت أو كنه الجمال، بقدر ما كانت لإثارة الرّواسب القاتمة والمظلمة في الإنسان ولتحريك الكوامن الأسطوريّة والطقوسية فيه، علّه يدفعه إلى الإيمان بالموت في سبيل الحبّ، وفي معبد الطّبيعة وهي تتعرّى كمن ينبذ الزّيف ويطرح الأقنعة ليكون أجمل، أو ليموت فيبعث ويخرج إلى النّور الأبديّ، كما عائشة "تشقّ بطن الحوت، وترفع في الموج يديها، وتفتح التابوت، وتزيح عن جبينها النقاب، وتجتاز ألف باب."

حبُّها كان .. وفي قريتنا
يدّعي العرّاف : « أنّا عاشقانْ »

آهِ لو عُدْنا إلى الحقل لَمَا
طردتنا الريح من كل مكانْ

أرضه السوداءُ والمحراث في
صدرِها باقٍ ، كما بالأمس كانْ

والعصافيرُ على ندرتها
لم تزل تؤنس غابَ السنديانْ

والربى لمّا تزل شاحبة
فُلّها يسأل عنا الأقحوان

آهِ لو عُدنا ، لقبّلتُ ثرى
أرضه ، واحتضنتْ رأسي يدانْ

ولطوّفتُ على أكواخه
سارقاً نومَ الصبيّات الحسانْ

موقظاً منْ كان ليلي ليلُها
وإليها كان يدعوني الحنانْ
وإلى البدر نمضي خلسة
عن عيون الأهل نُصغي لأغانْ

لأغـاني الحـاصـد العـائـد من
كوخه النـائي المُغشّى بالـدخان

أتُـراهـا لم تـزلْ تـذكـرُ مِنْ
عمرها يوماً به كانت وكانْ ؟

يـوم ألقتْـه على الأرض وقـد
نـامت القـريـةُ عنّـا والـزمـانْ

موعد مع الربيع

ـ « لو لم تمتْ ! »
وحجبتُ عن عيني الجليدْ
وصرختُ من أعماق يأسي : « لا أريدْ ! »
هي والسنونو والربيع ، غداً تعود
هي والوجود ، غداً تعودْ
وحجبت عن عيني الجليد ، ومن جديد
فوق الحقول ، تلألأ القمر النحيلْ
كذبابةٍ حمراء ، يجنح للأفولْ
وصرخت : « لا . . . »
في وجه موتي : « لا أريد ! »
وبصقت : « لا . . . »
في وجه موتي : « لا أريد »
الباب يُفتح ، والضياء يمسّ نفسي من جديدْ
وكأنما بيض تَكَسّرَ عن نسورْ
نفسي ـ التي كانوا أماتوها ـ تكسر عن نسورْ
طارت إلى أفق البكاءْ
« لو لم تمت ! »
وبصقت في وجه السماء
لا دمع في عيني ، وموتي ، والضياءْ

والباب يُفتح من جديد :

« رباهُ ! . . . » والباب المُوارب في حياءْ

نفسي تهز رتاجه المصدوء يخنقها البكاء

« رباهُ ! أحوج ما نكونْ

فقراءُ نحنُ إليكَ ، أحوج ما نكون

رب المساكين ، الحزانى ، الضائعين

فقراء نحن اليك ، رب الضائعين ! »

والليل ، والأنداء ، والقمر النحيل

كذبابة حمراء ، يجنح للأفول

وضحكت : « ماذا يشتهي الإنسانُ

إنْ ملَكَ الذي قد يشتهيهْ ؟ »

ماذا ؟ « سوى القمر »

ـ . . . الذي قد يشتهيهْ ؟ ـ

ماذا ؟ وفي نفسي الرغائب تستفيق

« لو لم تمت ! »

وشرعت أعدو في الطريقْ

عبد الحياة ، أنا الرقيق

عبد الحياة يعود ، يحمل من جديدْ

جذلانَ ، صخرته ، إلى السفح البليد

وسخرت من نفسي : « تعود ؟

هي والربيع ، غداً تعود ! »

من أجل الحب

من أجل أن نضحك للشمس
على شواطىء البحار
ونجمع المحار
ونقطف النرجس- من حدائق النهار
من أجل أن تصمد في وجه رياح الليل والأمطار
بيوتنا الحالمة الأزهار
من أجل أن نكتب في جمال عيني أرضنا الأشعار
ونقطف الثمار
من ألف بستان وأن تجمعنا - مهما اختلفنا - دار
من أجل أن ينهار
ليل الطواغيت
وأن تنتصر الحياة
غنيت للحب
وللسلام
والصغار
يا إخوتي الكبار

الأميرة والبلبل

يوم دخلت في الضحى
حديقة الليمون
أمطرت السماء عطراً
أمطرت شجون
واستيقظ البلبلُ
يا أميرتي
والتقت العيون
وأورقت غصون
ورن صوت دافىء حنون :
موعدنا غداً ، هنا
ومرت السنون
وخلّف البلبل
يا أميرتي
وأورقتْ غصون
جديدة ، وانتشر الطاعون
في حيِّنا ، وامتلأت سجون
مدينتي بالناس
وامتدت يد المنون
إلى ربيعي الأسود الحالم في حديقة الليمون

وأخمدت أنفاسه

وأخمدت لحون

قيثارة السكون

* * *

موعدنا غداً ، هنا

ومرت السنون

لكنني أفقت يا أميرتي

من غمرة الجنون

ولم أعد أجتاز في رأد الضحى

طريقنا الواغل في مجاهل الظنون

فالنار في مدينتي امتدت إلى حديقة الليمون

غياب إلى هند

حبيبتي ، وأنت تبحرين
إلى بلاد الخبز والسلام والنسرين
صلّي لأجلي
إنني حزين .
أصنع أقماراً من التراب
أهيم في شوارع المدينة الموصدة الأبواب .
أدفن في كتاب
رأسي .
وأستغرق في الغياب
لعل ، يا حبيبتي ، سفينة النجاة
تلوح في العباب
وأنت ، في مقدمها ، حمامة بيضاء
تحمل في منقارها زنبقة حمراء
تحمل لي هدية ، خطاب
من أم جنديٍّ
فأستغرق في قراءة الخطاب
رائحة الأمطار في حروفه
رائحة الأعشاب
من بحر قزوينَ ومن مناجم الأورال

من كوخ صياد على التلال
يقرأ في ديوان شعر أخضر الغلاف
تصوري ! الأصداف
والموج والطيور والانسان
تنبض في ديوان
ديوان شعرِ أخضر الألحان
في كوخ صياد على التلال .
حبيبتي ما أجمل الليال !
وأنت في صفائها ملاك
يحملني طفلاً إلى هناك

* * *

حبيبتي ، وأنت تبحرين
إلى بلاد الخبز والسلام والنسرين
صلّي لأجلي
إنني حزين

مرثية أخرى إلى ناظم حكمت

البطل الأسطورة
يعود من رحلته الأخيرة
منتصراً
مُعانقاً مصيره

ع . البياتي

1

السحابة العاشقة

يتيمةُ الوطن
كنتُ ، وكان طائرُ الشجن
رفيقَ رحلتي إلى الكفن
كان صبايَ
حبيَ الأخيرِ
طائري ، إذا ما أظلم الفنن
رفيق رحلاتي إلى الوطن
في وحشة الزمن
كان حياتي ، فأنا من بعدهِ
سحابة تطفو على القُنَن
تطردها الرياح من منفىً
إلى منفى
تشدّ شَعْرَها المحن
مَنْ أيقظ الغارقَ في صلاتهِ

منْ دقّ بابي ؟ مَنْ . . .
يا زورق الوسن
خذني إلى « استامبولَ » إنّي لم أمُت
يا زورق الوسن

2

الأمير النائم

العالم الكبيرْ
تحت وسادة الجميل النائم الأميرْ
يعجّ بالكثير:
قصيدةً ، فراشةً ، غدير
علبة حلوى ، دميةً ، يعجّ بالكثير
وشالُهُ الأحمرُ والقرنفلات تحرس السرير
وشمعةٌ تضيء حلم ليله الأخير
كقطرةٍ من ذهبٍ ، كقطرة العبير
تخرق ديجور الفراغِ
شمعةُ المصير .
كان ينام ، كانتِ ابتسامةٌ تمر فوق فمه الصغير
وخدُّهُ المورَّد المنير
كالقمر الميت في غياهب الحرير
كان ينام
كانت « استامبولُ » في خيالهِ

فراشةً تطير
حطّت على القرنفلاتِ
أيقظت من نومه الأمير

3

شتاء في باريس

باريس في الشتاءْ
تدثّرت بالثلج والفراء
فما لقلبي ظلّ في العراء
يبكي كعصفورٍ على الأرصفة البيضاء
يبكي ، نوافذُ البيوت نُوِّرت
وأقبل المساء
كمثل آلاف الأماسي
بارداً
يبكي . . بلا عزاء
باريس شاخت
وأنا ما زلت طفلاً
حرفتي التجوال والغناء
حانات ليل العالم الطويلِ
والثلج الذي تغمره الكآبة الخرساء
وذلك الصوت الذي تُرعشهُ
بائعة « الأوركيد » في المساء
يحمل لي رائحة الموت الذي يحوم في الهواء

يدق مسمارا بتابوتك ، يا حبي
ويا بوّابة الهناء
لن نعبرَ الجسر اليكَ ، مرة أخرى
ولن نعودَ في المساء
باريسُ ماتت
فوداعاً أيها الأحياء !

4

العودة من المنفى

ولادةٌ أخرى هو الموتُ ، هو الإياب
الرمل والحصى على الشاطىء والضباب
زوارقُ الحبِّ
تحطمت
وغاض النورُ في العباب
ريشةُ نسرٍ غُرزت في وردةٍ ، كتاب
ظلَّ طوال الليل مفتوحاً
وظل العندليبُ ساهداً في الغاب
ـ ناظم عادَ ! مَن يدق الباب ؟
عاد من المنفى مع الطيور والسحاب
كان الصدى يزقو
وكان البحر في انتظارهِ
يدحرج الأحجار والأخشاب
ناظم عبر الأناضول ، فافتحوا الأبواب

يسقي الدوالي

يغرس الزيتون في الهضاب
وعرق الظهيرة الحمراء في الأهداب

كان جلال الموتِ

كان حفنة التراب

ناظم عادَ ، فافتحوا الأبواب !

عناق

رسالتي
كانت اليك
بسيطة مثلي
ومثل غناء عمال العراق
مثل العناق
إني مددت يدي
إلى كل الرفاق
في كل حرف من حروف سطورها
المتوهجات
وغمست بالدم
ريشتي
وكتبت هذي الأغنيات

أحبها

أحبها ، أحبَ عينيها
أحب شعرها المعطار
أحب وجهها الصغير كلما استدار
أحب صوتها الحزين الدافىء المنهار
يفتح في الظلمة شباكاً
ويهمي في الضحى أمطار
أحبها
حب الفراشات لحقل الورد والأنوار .
أحبها ، يا فجر أيامي
ويا عرائس البحار
ويا صديقاتي
وداعاً
قلق الأسفار
وحسرة الخريف في القفار
تهيب بي : تعال لا تخش لهيب النار .

* * *

أحبها
وآنهار في قلبي جدارُ الثلج
وآنساب دم النهار .

بغداد - 17-3-1959

ثلاث رباعيات

1

رأيت في المنام
محبوبتي ، عارية ، ترقص في كأس من المدام
أردت أن أشربه ، لكنني غرقت في الكأس وفي الظلام
لأنني كنت مغني صاحب الجلالة السلطان

2

أردت أن أعانق الأطفال في الطريق
أردت أن أشعل في قصائدي الحريق
لكنني غرقت في صمتي ، وفي بئر حياتي الأسود العميق
لأنني كنت مغني صاحب الجلالة السلطان

3

وضعتُ قلبي في إناء ، ووضعت السيف في إناء
محبوبتي امتلكتها ، تقطر من شفاهها الصهباء
صدحت بالغناء
لأنني قتلت ذا الجلالة السلطان .

ستالينو - 14-1-1960

أنا وأنتِ أبداً

« الى هند »

من أجل عينيكِ الجميلتين
صليتُ مرتين
أوقدت شمعتين
بكيتُ ، يا حبيبتي ، فالبين
يمد لي يدين
عبر دموع الأرض ، لي يدين
أخاف أن تستيقظي
وتقرئي
دامعة العينين
قصيدتي
فلتذكري بيتين :
أنا وأنتِ أبداً
نظلُّ عاشقين

موسكو ـ 25-1-1961

المغنّي والقمر

1

رأيته يلعب بالقلوب والياقوت

2

رأيته يموت

3

قميصهُ ملطخٌ بالتوت
وخنجرٌ في قلبهِ
وخيط عنكبوت
يلتفّ حول نايهِ المحطم الصموت
وقمرٌ أخضر في عيونهِ
يغيب عبر شرفات الليل والبيوت
وهو على قارعة الطريق في سكينةٍ يموت

موسكو - 26-1-1961

الى هنـد

عيناك « مدريدُ » التي استعدتها
عيناك « قندهار »
بحيرتان عبر غابات النخيل وسهوب النار
غرقتُ فيهما ، آحترقتُ
دَمّر الإعصار
جزيرتي ، وأغْرَقَ التيار
ضوء القناديل الخريفيَّة
في قصر جنّية
عاشت على انتظار أغنية
وفارسٍ مُلثم يأتي مع الريح الشماليّة
يدق في قيثاره الأبواب
يُلقي سؤالَهُ ولا ينتظر الجواب
ماذا على الماء كتبت أيها الإنسان ؟
وما هو الشيءُ الذي يعيش إنْ كرهتَهُ ؟
يموتُ إن أحببتَهُ ويغمر العالم بالضباب ؟
عيناك « أصفهان »
أوى إلى أبراجها الحمام
وبُعث الخيّام
بعندليب فمه الظمآن
مُوَزّعاً ألحانه في الحان

وَمُتْرعاً قُبة هذا الليل بالمُدام

عيناكِ « بغدادُ » التي افتقدتها في الصحو والأحلام

لو كنتُ هارونَ الرشيد لتنزهتُ بها

مُوَزِّعاً على الجموعِ طَيِّبَ الكلام

لكنني لست الخليفةَ الشهيرَ أو مغني عصره الهمَّام

ولست بالخيَّام

وإنني بالرغم من فقري بهذا الزمن البخيل

وليل حزني المُجدِب الطويل

بكيت ، يا حبيبتي ، كثير

منحت أهلي الفقراء كلماتي

وتمزَّقتُ على الأشواق في الهجير

23-4-1965

مرثية إلى عائشة

يموت راعي الضأن في انتظاره ميتةَ جالينوس
يأكلُ قرصَ الشمسِ أورفيوس
تبكي على الفراتِ عشتروت
تبحثُ في مياهِه عن خاتمٍ ضاعَ وعن أغنية تموت
تندبُ تموزَ فيا زوارقَ الدخان
عائشةُ عادتْ مع الشتاءِ للبستان
صفصافةً عاريةَ الأوراق
تبكي على الفرات
تصنعُ من دموعِها ، حارسةُ الأموات
تاجاً لحبٍ مات
تعبثُ في خصلاتِ ليلِ شعرِها الجرذان
تزحفُ فوق وجهها جحافلُ الديدان
لتأكلَ العينين
عائشةُ تنامُ في المابينْ
مقطوعة الرأسِ على الأريكة
أيتها المليكة
رأيتُ رؤيا كانتْ السماء
ترعُد فاستجابت الأرضُ لها سحابةً من نار
نسراً بلا أظفار
أخْمَدَ أنفاسي وعرّاني من الثياب

كسا يدي بالريش والأصداف
فأصبحتْ يدي جناحَ طائر مجذاف
مددُتها فقادني النسرُ إلى حارسة الأموات
حيث الملوكُ نُزِعَتْ تيجانُهم وَكُدسَتْ وحيث لا أبواب
تُفْتَحُ أو تُغْلَقُ ، حيث أسدُ التراب
طعامُهُ الطينُ وقوتُ يومِه اليباب
فصاح بي كاهنُ هذا العالم السفليِّ وهو يشحذ السكين
مَنْ الذي أتى بهذا الرجل المسكين ؟
عائشةٌ عادتْ إلى بلادها البعيدة
قصيدةً فوق ضريح ، حكمةً قديمة
قافيةً يتيمة
صفصافةً تبكي على الفرات
عاريةَ الأوراق
تصنع من دموعها ، حارسةُ الأموات
تاجاً لحب مات .
فارتفعتْ سحابةٌ من الدخان ومضى النهار
وثالثٌ ورابعٌ والنار
كانتْ فراشَ مرضي ، وكانت الأحجار
وها أنا أموتُ بعد هذه الرؤيا على الأريكة
مثلك يا أيتها المليكة
أكتبُ فوق ورق الصفصافة
على الفرات بدمي ، ما قالتْ العرَّافة

للريح والعصفور والرماد
أموت كلَ ليلةٍ سكران
وصاحِياً : فما أَقَلَّ الزاد .
أجوسُ في بابلَ وحدي منزلَ الأموات
وحدي على خرائب الفرات
أُكَلِّمُ السحاب
وأنبشُ التراب
أصيحُ من قبرِ انتظاري يائساً أصيح
أقولُ للصفصافة
ما قالت العرّافة
عائشةٌ عادت إلى بلادها البعيدة
فَلْتَبكِها القصيدة
والريحُ والرمادُ واليمامة
وَلْتَبكِها الغمامة
وكاهنُ المعبد والنجومُ والفرات
على فراش الموت أَضجعتُكِ يا عشتار
بكيتُ في بابلَ حتى ذابتْ الأسوار
فأيّ خير نالني أيَتُها العنقاء
عدتِ الى الفرات ، عدتِ موجةً عذراء
وموقداً يخمد في البرد وباباً لا يصد الريح
عدتِ كتاباً باهتَ النقوش
يقرؤهُ العشاق

يبيعه الوراق
لكلِ من هَبَّ ، لكلِ قاريءٍ جديد .
وعظمةً باليةً وأملاً مسموم .
عائشةُ عادت إلى بلادها البعيدة
فلتبكها القصيدة
وليبكها الفرات

أَحَبَّها صبية
ميتةً وَحَيّة
قصيدةً على ضريح ، حكمةً قديمة
قافيةً يتيمة
صفصافةً عاريةَ الأوراق
تبكي على الفرات
ـ أَحَبَبْتُهُ من قبل أن أراه
من قبل أن تحملني عبر صحارى وطني يداه
وبعد أن أحبَّني ، أحْرَقَني هواه
حلّتْ بروحي قوةُ الأشياء
وانْهَزَمَ الشتاء
ذابتْ ثلوجُ وحشتي
واستيقظتْ طفولتي
كان لها طعم الحريق في فمي ، والدم والرماد
وعندما قَبَّلَني أحسستُ أن الأرض دارتْ مرتينِ ، سَقَطَ المطر
وكنتُ في الغابة أجري وأنا محلولة الشعر
حافيةً على بساط ذهب السماء والزهر
في غابة السحر
تنفخُ صدري الريحُ كالشراع في النهر
نهدايَ كانا خائفينِ وأنا أضحكُ في براءة الأطفال

قلتُ له تعالْ !
أنت حياتي ، أنتَ لي ، تعال
مَزِّقْ وَمَزِّقْ هذه الأستار
وآغمرْ ظلامي بحنان النار
في ذات يومٍ قال لي . . . أوَّاه
نسيتُ ، فالأموات
لا يسمعونَ هذه الصيحات
ـ لم يَبْقَ لي أحد
الكل ماتوا ، رحلوا ، حمامتي الوداع !
كنا معاً نُدركُ سرَّ الموت والحياة
كنا معاً ، فآه . . .
. . . وَخَيَّمَ الليلُ على « مدريد »
وَسَقَطَ الجليد
مُخَبِّئاً بيده البيضاء وجهَ العاشق الشريد
وطارتْ الحمامة
وعاد جثماني إلى « تهامة »
وعندما فتحتُ عيني ، كانت الغمامة
تغمر وجهَ الميِّتِ العائدِ بالتقبيل
تمسحُ بالمنديل
دموعَهُ ، وطائرٌ مغردٌ مجهول
يطير في الليل ، رأيتُ شاعرَ المعرة
يطوف حول البيتْ

ممتقعاً وَمَيْت
قلتُ شبابي ضاعَ في انتظارها ، فقال
إياكَ والسؤالْ
فلن يردَّ جبلُ « التوباد »
لسائلٍ جواب
قلتُ شبابي ضاع في المقابر
والكتب الصفراء والمحابر
من بلدٍ لبلدٍ مهاجرْ
انتظرتُ في كل مقاهي العالم الكبير
قلت أراها في غدٍ وخانني التقدير
عقاربُ الساعات دارتْ ، أكلتْ عمري بلا حساب
قال لعل وعسى . . . وغاب
شيخُ المعرةِ الضرير أغْلَقَ الأبواب
ـ أحْبَبْتُها ، فماتت
شمسُ حياتي غابت
يا شَجر الأراك
ها أنذا أعود من مملكة الموت الى القبيلة
أبحث عن جذورها في هذه المفازة الطويلة
. . . ودارت الأفلاك
ولم أزل أبحث في « تهامة »
عن تلكُمُ الحمامة
وفي مساء زارني ملاكْ

ووضع القمر
على جبيني ، شَقّ صدري ، آنْتَزَعَ الفؤاد
أخْرَجَ منه حبةَ السواد
وقال لي إياكَ فالعنقاء
تكبُر إن تُصادْ
فَعُدْ الى المقابر
والكتب الصفراء والمحابر
من بلد لبلد مهاجر

الموت في غرناطة

عائشةٌ تشقُّ بطنَ الحوت
ترفع في الموج يديها
تفتح التابوت
تُزيح عن جبينها النقاب
تجتاز ألف باب
تنهض بعد الموت
عائدةً للبيت
ها أنذا أسمعها تقول لي لبَّيكْ
جاريةً أعود من مملكتي إليك
وعندما قبَّلتها بكيتْ
شعرت بالهزيمة
أمام هذي الزهرة اليتيمة
الحبُ ، يا مليكتي ، مغامرة
يخسر فيها رأسَهُ المهزوم
بكيتُ ، فالنجومْ
غابتْ ، وعدتُ خاسراً مهزوم
أُسائلُ الأطلالَ والرسوم
عائشةٌ عادت ، ولكني وُضعتُ ، وأنا أموت
في ذلك التابوت
تَبادَلَ النهران

مجريهما ، واحترقا تحت سماء الصيف في القيعان
وتركا جرحاً على شجيرة الرمان
وطائراً ظمآن
ينوح في البستان
آه جناحي كسرته الريح
وصاح في غرناطة
معلم الصبّيان
لوركا يموتُ ، ماتْ
أعدمه الفاشست في الليل على الفرات
ومزّقوا جثته ، وسملوا العينين
لوركا بلا يدين
يبثّ نجواه الى العنقاء
والنورِ والتراب والهواء
وقطراتِ الماء
أيتها العذراء
ها أنذا انتهيتْ
مقدَّسٌ ، باسمك ، هذا الموت
وصمت هذا البيت
ها أنذا صلّيت
لعودة الغائب من منفاه
لنور هذا العالم الأبيض ، للموت الذي أراه
يفتح قبر عائشة

يُزيح عن جبينها النقاب
يجتاز ألف باب
آه جناحي كسرته الريح
من قاع نهر الموت ، يا مليكتي ، أصيح
جَفّتْ جذوري ، قَطَعَ الحطّاب
رأسي وما استجاب
لهذه الصلاة
أرضٌ تدور في الفراغ ودمٌ يُراقْ
وَيحْي على العراق
تحت سماء صيفه الحمراء
من قبل ألفِ سنةٍ يرتفع البكاء
حزناً على شهيد كربلاء
ولم يزل على الفرات دمه المُراق
يصبغ وجهَ الماء والنخيل في المساء
آه جناحي كسرته الريح
من قاع نهر الموت ، يا مليكتي ، أصيح
من ظلمة الضريح
أمدُّ للنهر يدي ، فَتُمسك السراب
يدي على التراب
يا عالماً يحكمه الذئاب
ليس لنا فيه سوى حقّ عبور هذه الجسور
نأتي ونمضي حاملين الفقر للقبور

يا صرخات النور
ها أنذا محاصرٌ مهجور
ها أنذا أموت
في ظلمة التابوت
يأكل لحمي ثعلب المقابر
تطعنني الخناجر
من بلد لبلدِ مهاجر
على جناح طائر
ـ أيتها العذراء
والنور والتراب والهواء
وقطرات الماء
ها أنذا انتهيت
مقدّسٌ ، بآسمك ، هذا الموت

الموت في الحب

فراشةٌ تطير في حدائق الليل إذا ما استيقظتْ باريسْ
يتبعها « أوليس »
عبر الممرات إلى « ممفيسْ »
تعود للتابوت
لظلمة البحر ، لبطن الحوت
تتركني على الرصيف صامتاً أموت
تحت رذاذ مطر الخريف
وحبّها المفترس المخيف
في ليل باريس بلا دليل
أتبع موتي في زحام الشارع الطويل
ها هي ذي ترقص في كأس من المدام
عاريةً تحت سماء الليل والأنغام
تغازل الظلال
تقول لي تعال !
وتختفي في الظلمة
شاحبةً كنجمة
تفرّ من باريس
تاركةً وراءها « أوليس »
يبكي على قارعة الطريق

يموت في حانات ليل العالم الطويل
ـ أنا أميرُ الدنمارِكِ « هملت » اليتيم
أعود من مملكة الموت الى الخمّارة
مهرِّجاً حزينْ
يقاتل الأقزام والأصفار
في مدن الضوضاء والتجارة
أيتها الأعمدة المنهارة
« أوفيليا » عادت إلى صنعاء
أميرةً شرقيَّة
ساحرةً ، خنساء
تأوي الى قلعتها النسور والظباء
ـ أيتها العذراء
هزِّي بجذع النخلة الفرعاء
تَسَّاقطُ الأشياء
تنفجر الشموس والأقمار
يكتسح الطوفان هذا العار
نولد في « مدريد »
تحت سماء عالم جديد
قالت أراكَ في غدٍ وانطفأ القنديل
ونامت الفراشة
واستيقظتْ باريسْ
تحت رذاذ مطر الخريف

مبتلةً مقرورة
حاملةً قيثارةً مكسورة
ـ أيتها الكينونة
أيتها الساحرةُ المجنونة
عائشةً تُبعث تحت سعف النخيل
فراشةً صغيرة
تطير في الظهيرة
ها هي ذي ترشق بالقرنفل الأحمر وجـهَ الموتْ
تقول لي تعال !
خُذْني على ظهر جواد الليل والنهار
إلى سهوب النار
راعيةً لِغَنمِ القبيلة
خذني الى مدينة الطفولة
فأنني أموتُ من كونيَ لا أموتْ
ـ عائشةٌ أصابها دوارُ هذا الجيل
تقمَّصتْ روحَ بناتِ الماء
وَنَكّستْ رايتها الهزيمة
« أوفيليا » اليتيمة
تُبعث تحت سعف النخيل
عاشقةً صغيرة
تنفضُ عن جبينها التراب
تجتاز ألف باب

يتبعها « أوليس »
عبر الممرات الى « ممفيس »
ـ سنابلُ القمح التي خبأتُها في ظلمة الضريح
تفتَّحتْ أجفانها واختلجتْ في الريح

1

يبقُر بطنَ الأيِّلِ الخنزير
يموت « أنكيدو » على السرير
مُبْتَئِساً حزين
كما تموت دودةٌ في الطين
أدركه مصيرُ « لقمانَ » مصيرُ نَسْره السابع في النهايه
تَمّتْ فصولُ هذه الرواية
لن تَجدَ الضوءَ ولا الحياة
فهذه الطبيعة الحسناء
قَدّرتْ الموتَ على البشر
واستأثرتْ بالشعلةِ الحيةِ في تعاقبِ الفصول
ماذا لموتي آه يا مليكتي أقول ؟
والشعلةُ الزرقاء
لم أرها ولم أزُرْ بلادها البعيدة

2

مدينةٌ مسحورة
قامتْ على نهرٍ من الفضةِ والليمون

لا يُولدُ الانسانُ في أبوابِها الألفِ ولاّ يموت
يُحيطها سورٌ من الذهب
تحرسها من الرياح غابة الزيتون
رأيتُها والدودْ
يأكل وجهي وضريحي عَفِنٌ مسدود
قُلتُ لأمي الأرض : هل أعود ؟
فضحكتْ ونفضتْ عني رداءَ الدود
ومسحتْ وجهي بفيض النور
عُدتُ إليها يافعاً مبهور
أعدو على ظهر جوادي الأخضر الخشب
صحتُ على أبوابها الألف ولكن النعاسَ عَقَدَ الأجفان
وأغرقَ المدينةَ المسحورة
بالدم والدخان

3

الغادةُ المضواع
ذات العيون السود والأقراط
تجَمَّلتْ بورق الليمون والقَداح
تَعَطّرتْ بماء ورد النار
وقطرات مطر الأسحار
غرناطة الطفولة السعيدة

طيارةً من ورق ، قصيدة
مشدودةً بخيط هذا النور
تهتز فوق السور
غرناطة البراءة
تُمعن في إلقاء ما تحملُ من ريحٍ ومن نجوم
تنام تحت نُتَفِ الثلج على القرميد
تشير في خوفٍ الى كثبانها السوداء
فَمِنْ هناك الأخوة الأعـداء
جاؤوا على ظهر خيول الموت
وأغرقوا بالدم هذا البيت

4

ثورٌ من الحرير والقطيفة السوداء
يخور في الساحة والفارس لا يراه
قرناهُ في الهواء
يطاردان نجمةَ المساء
ويطعنانِ الفارسَ المسحور
ها هو ذا بسيفه المكسور
مضرّجٌ بدمه في النور .
فَمانِ أحمرانِ فاغران

شقائقُ النعمان
على سفوح جبل الخرافة
دمٌ على صفصافه
ـ أيتها النافورةُ الحمراء
أسواقُ « مدريدَ » بلا جِناء
فَضَمِّخي يَد التي أُحبُّها ، بهذه الدماء
يا صيحةَ المهرِّج ، الجمهورْ
ها هو ذا يموت
والثور في الساحة مطعوناً بأعلى صوته يخور

5

غسلاً لعار الموت حتْفَ الأنفْ
أغْمَدَ حَدَّ السيفْ
في قلب هذا الليلْ
قاتلَ حتى الموتْ
من شارعٍ لشارعْ
أدركه الأوغادْ
وزرعوا في جسمه الخناجر
وقطعوا الخيطَ الذي يهتز في السماء
طيارةُ الطفولةِ الخضراءْ
تسقط في خنادق الأعداء
غرناطةُ اليتيمة

يبيعها النخّاس
من يشتري عائشةً ، مَنْ يشتري العنقاء ؟
أميرةٌ من بابلٍ أسيرة
أقراطها من ذهبِ المدينةِ المسحورة
مَنْ يشتري الأميرة ؟

6

مدينةُ « الضرورة »
ترهصُ بالعالم والانسان
تحت سماء صيفها العريان
أُواجهُ الضياعَ والأسطورة
أُواجهُ النسيانْ
أيتها الصيرورة
النسخ المكرورة
في هذه الماكنةِ الكبيرة
تقرضها الفيران
يا ببغاء الملك الأبله ، يا عشيقة السلطان
تسلقي جوائط المتاحف
وضاجعي الزواحف
وقامري برأس هذا الثائر
ها هوذا محاصرٌ من شارع لشارع
تتبعه الخناجر

ديك الجن

ـ رأيتُ ديكَ الجِن في الحديقة السريَّة
يضاجعُ الجنيَّة
يغمرها بالقُبل الندية
يسحقها بيده الصخرية
ويُشعل النيران
في جسمها المبتهل العريان
لكنها تفُر قبل ذروة العناق
تعود للأعماق
تاركةً قميصها وحسرة
وخصلةً من شَعْرِها وزهرة،
تموت في جزائر المرجان
عاريةً محترقة
مسحوقةً كزنبقة
يسقط عن جبينها الإكليل
ها هي ذي في القاع
تزحف فوق وجهها جحافلُ الديدان
ـ رأيتُ ديكَ الجنِ في القاعِ بلا أجفان
على جواد عصره المهزوم
يقاتل الأقزام
مهاجراً في داخل المدينة

من شارعٍ لبيت
على جوادِ الموت
ـ مدينةَ الخناجر الخفية !
ها هي ذي الجنية
تعود بعد موتها صبية
جاريةً رومية
ـ إياكَ والوقوعَ في حبائل النساء
تقولُ جدتي وتُمضي الليلَ في الدعاء
ـ كانت طيورُ الجنةِ المفقودة
تُوقظُ في غنائها طفولتي الشريدة
ـ رأيت ديكَ الجن من فردوسه مطرود
يصطاد في قفار ليلِ موتِهِ الأسود
والكلمات السود
ملطخاً بالحبر والغبار
وعرق الأسفار
تنبحه الكلاب والأصفار
وحاجب الخليفة
ـ علامةُ الساعة أن يظْهَر هذا الأعورُ الدجال
مُذنبٌ يجر خلف ضوئِهِ الرجال
للموت بالمجان
في مدن الدخان
ـ ضفادعُ تمسكُ في حافرها الأقلام

تكتبُ ما يقوله الطغاةُ والأقزام
ـ ها هي ذي الصحائف الصفراء
تمجِّد الطغيانَ والجريمة
تغمر في كلِ صباحٍ هذه المدينة
ـ الحاجبُ الأصمُ والبَّواقُ والطبَّال
فرسانُ جيلِ العار
يلطخون رايةَ الثوار
بالدَم والأوحال
ـ خليفةٌ في قفصٍ وشاعر
بقلبه يقامر
ـ أيتها العدالةُ الميتةُ الوهمية
يا أيها القضاة
تلك هي القضية
وقعت في حبائل الجنيّة
حمامةٌ كانت على الخليج
تنوح في الشَّرك
لؤلؤة غوّاصها هلك
صفراً من الذهب
يدور حول نفسه في العدم الرهيب
ـ كنتُ على ظهر جوادي الأخضر الخشب
أُقاتلُ الأقزامَ في « مدريد »
أيتها الجاريةُ الرومية

لا تطردي الغريب
قلتُ لها ـ وَسَقَطَ النصيف
على بساط العشب في المغيب
تَناوَلتهُ وبكتْ عُريَ سماءِ ليلةِ الخريف
ـ أنا أميرُ الليل
قتلتُها ـ مزَّقتُها بالسيف
تحت سماء الصيف
مُرنّحاً سكران
أشعلتُ في أشلائها النيران
صنعتُ من رمادها فراشةً ودُمية
وقدحاً مسحور
لا أرتوي منه ، فيا خمَّار حانِ النور
ماذا لنار بعثها أقول ؟
فهذه الطبيعة الحسناء
قَدَّرَت الموت على البشر
واستأثرت بالشعلة الحية في تعاقب الفصول
ـ غداً أمام الله في الجحيم
أحطم الدميةَ والقدح
أتبعها عبر الممرات الى الفرات
أبحث في مياهه عَن خاتمٍ ضاعَ وحبٍ مات
أنامُ في الضفاف

صفصافةً تنتظر العرّاف
والبرقَ والعصفور
وراقصاتِ النور
- أنا أميرُ حلب اليتيم
مهاجرٌ في داخل المدينة
من شارع لبيت
على جواد الموت

روميات أبي فراس

1

جنّيةٌ كانتْ على شطآن بحر الروم
تبكي وكنتُ راقداً محموم
على رمال الشط عند مغرب النجوم
تنتظرُ البحارةَ الموتى وتستلقي على الصخور
تمدّ للنوارس الضفيرة
تكتبُ فوق الرمل ما أقول
عانقتها وهي على شطآن بحر الروم
عاريةً تعوم
فانطفأ الليلُ وصاحَ البوم
أيتها العرافة
لا تكتبي فوق رمال الشط ما أقول
فسيدُ الآلام في المغارة
ينتظر الإشارة

2

لم يُقبل الفارسُ من دمشق
ولم يُضيء وجهَ المغنّي البرق

3

عانيت موت الروح
في هذه الأرض التي يهدر في جبالها
رعدٌ عقيمٌ وتجوع الريح
ويُصلبُ المسيح

4

كتبتُ فوق الصخر
اسمك ، يا حبيبتي ، وفوق موج البحر
فمَحت الرياحُ ما كتبتْ
ولم يَرَ العرّافُ ما رأيتْ
ولا المغنّي عندما بكيت
أدرك معنى البيتْ
وهو يغني ميتاً للموت
وها أنا في الأسرْ
أكتبه ثانية فوق رخام القبر

5

ها هو ذا في مغرب النجوم
يحمل حفنتينِ من ترابِ قبرِها
على شطآن بحر الروم
تطعن عينيه رماحُ النور
وساحراتُ العالم السفلي والدهور

يحلم في بعث رماد طائر الخرافة
يروي جذورَ هذه الصفصافة
بدمهِ ، لعلها تولد أو تموت
« يونسُ » لن يشق بطنَ الحوت
فالبحرُ جف منذ أن أبحرتَ بي
وقلتَ لي لا تكتبي
على رمال الشط ما أقول

6

يا امرأةً تموت في الولادة
تاركةً وليدَها في الأسر
لن تُبعثي
فسيِّدُ الآلام
طوى جناحيه على جراحه ونام

7

كتبتُ فوق الصخر
اسمك ، يا حبيبتي ، وفوق موج البحر
فَمَحَت الرياحُ ما كتبت
وها أنا في الأسر
أكتبه ثانية فوق رخام القبر

8

الليل في الشطآن

تحملني نجومه على خيول الريح
يا ميتاً يصيح
في قبره ، يا رحلة لليل في النهار
متى ستُلقين عصا التسيار ؟

9

كتبتُ فوق السور
مرثيتي الأخيرة
فإن مررتِ في غدٍ أيتها الأميرة
بهذه الجزيرة
فلتأخذي وريقةً من هذه الصفصافة
وريشةً من طائر الخرافة
وقطرةً من نور
إلى صحارى وطني المهجور
لعل خيل الفتح ، يا أميرتي ، على ضياء الصُبْح
تمسح عارَ الجُرْح

10

ناعورةٌ تبكي على الفرات
أيقظني أنينها في ليلة المعراج
رأيتُني حراً على الأمواج
أمشي وكان في يدي سراج
وزهرةٌ تطفو على المياه
أمام باب الله

1

تذرف السـروةُ في الليل دموع العاشقة
وتُعرّي صدرها للصاعقة
وعلى أقدامها يسجد عرّافُ الفصول
عارياً أنهكه البردُ وغطى وجهه ثلجُ الحقول
يخدش الأرض ، يُعرِّيها
يموتْ
تاركاً قطرة نور
بين نهديها الصغيرين وفي أحشائها رعشةَ بركان يثور
حيث تنشقّ البذور
ترضع الدفءَ من الأعماق تمتدّ جذور
لتُعيد الدم للنبع وماء النهر للبحر الكبير
والفراشات الى حقل الورود
فمتى عشتار للبيت مع العصفور والنور تعود ؟

2

نبتتْ لي أجنحة
وأنا أحمل من منفى الى منفى تعاويذَ الملوك السَحَرة

وزهور المقبرة
وعذابات الليالي الممطرة
مثل ماء النهر من تحت جسور العالم المشحون بالحقد
تلمستُ الضفاف المظلمة
وتمزّقت وناديتك باسم الكلمة
باحثاً عن وجهك الحلو الصغير
في عصور القتل والإرهاب والسِحر وموت الآلهة
وتمنّيتك في موتي وفي بعثي وقبّلت قبور الأولياء
وتراب العاشق الأعظم في أعياد موت الفقراء
ضارعاً أسأل ، لكنّ السماء
مطرت بعد صلاتي الألف ثلجاً ودماء
ودُمى عمياءَ من طين وأشباح نساء
لم يَرَينَ الفجر في قلبي ، ولا الليل على وجهي بكاء
فمتى تَنْهَلُ كالنجمة عشتار وتأتي مثلما أقبل في ذات مساء
ملكُ الحب لكي يتلو على الميّت سفر الجامعة
ويُغطي بيد الرحمة وجهي وحياتي الفاجعة

3

طائر غرّد عبر النافذة
رفّ في الظلمة والنور ، وحيّاني
وأهدى وردة محترقة
سقطت فوق ذراعي بضة مرتجفة

وأنا ألتفّ في نومي بحبل المشنقة
صارتْ الوردةُ طفلة
صارتْ الطفلةُ أنثى عاشقة
تتشهى قمر الثلج ونار الصاعقة

4

نبذتني طُرق العشق وملّتني الدروب
وأنا أبحث في بابل عن خصلة شَعْرٍ علّقتها الريحُ في حائط بستان الغروب
عن نقوش وكتابات على الطين وآثار حريق
مِنْ هنا مرّت وفي هذي الطلول الدارسة
لاحقتني لعنات الآلهة
والذئاب الجائعة
وأنا أتلو على المعشوق سفر الجامعة
ميتاً عاد من الأسر بأسرار الملوك السحرة
ليرى قريته المحتضرة
خبراً يرويه للريح صداح القبّرة
وتراباً خلّفته الزوبعة
في التكايا وعلىٰ وجه دراويش الفصول الأربعة

5

من ترى ذاق فجاعتْ روحه حلوَ النبيذ
وروابي القارة الخضراء والمطاط والعاج وطعم الزنجبيل
وعبير الورد في نار الأصيل
ورأى الله بعينيهِ، ولم يملك على الرؤيا دليل
فأنا في النوم واليقظة من هذا وذاك
ذقت ، لمّا هبطت عشتار في الأرض ملاك

6

وردة مرتجفة
حملتهـا الريـح من أرض الأساطيـر الى المقهى وموت الأرصفـة
لتغني صامتة
للروابي الخضر في الحلم وأوراق الخريف الميتة

7

جعتُ في بستان هذا العالم المثقل بالأزهار والحب وألوان الثمار
جعتُ حتى الموت في كل عصور الانتظار
وتمزقت ببطءٍ من نهار لنهار

وتماسكت وقد زعزعني الدهر وقبّلت قبور الأولياء
وتراب العاشق الأعظم في أعياد موت الفقراء
فلماذا عقرب الساعة دار
عندما ألقت على الجائع عشتار الثمار؟

8

لون عينيك وميض البرق في أسوار بابلْ
ومرايا ومشاعل
وشعوب وقبائل
غزت العالم لما كشفتْ بابلُ أسرار النجوم
لون عينيك سهوب حطمت فيها جيوش الفقراء
عالم السطوة والإرهاب باسم الكلمة
وغزت أرض الأساطير وشطآن العصور المظلمة

9

طفلة أنت وأنثى واعدة
وُلِدتْ من زبد البحر ومن نار الشموس الخالدة
كلما ماتت بعصرٍ بُعثتْ
قامتْ من الموت وعادت للظهور
أنت عنقاء الحضاراتِ
وأنثى سارق النيران في كل العصور

10

موجة تلثم أخرى وتموت

وجبال ودهور

وكهوف ملّت الصمت وأقمار من الطين تدور

وأنا أكتب فوق الماءِ ما قلتُ وقالتْ عشتروت

لا تُهـدىء آه من حبي ، وقـل شيئـاً بـه أؤمن ، شيئـاً لا يمـوت

لا توفِّر جسدي ، أيامه معدودة ، فلتُشعل النيران فيه

فغداً فوق ذراع امرأة أخرى وفي أحضان أخرى تشتهيه

إنني أصبو الى ذاتك ، ما هذي الدموع ؟

قبلة أخرى ، فنعرى ونجوع

حاملين الشمس من تيهٍ لتيه

صنم من ذهب أنت وفي أعماقه مختبىءٌ كاهن صحراء النجوم

مال نحوي وارتوى من شفتي ، فانطفأت في يده إحدى الشموع

جسدي أصبح ورده

عارياً في النور وحده

11

مدّن الله على الأرض بنيناها ، بنينا كعبة عبر البحار

وتعبَّدنا بمحراب النهار

أيها الحب الذي يعمر بالحب القفار
قادماً أقرع أبوابك أقبلتُ من الأرض الخراب
آه لن تسقط أزهاري على عتبةِ دار
دون أن تمنح محبوبي الثمار

المعجزة

سَبَحَ العاشقُ يـا سيدتي في دمه وانهارَ سور الصين بعـد المعجزة
واستردَّ الميِّتُ الحيُّ حصانَ العربة
واستقرَّتْ روحه الهائمة المضطربة
في الغصون المزهرة
ونواة الثمرة
فإذا ما عرّت الريحُ قميصَ الشجرة
وهوتْ أوراقها ذابلةً في المقبرة
مدّ من فصلٍ الى فصلٍ يدَ الشحاذ للنور وقَطْرات المطر
كامناً كالنار في الأشياء ، مأسوراً طليق
باحثاً كالنهر عن مجراهُ في أرض الخرافات وغابات الحريق
كلما دقّ على أبواب قصر الساحرة
في الليالي الماطرة
غابتْ الأبوابُ والقصرُ ؛ وخلّاني وحيد
في مقاهي مدن العالم أستجدي بطاقات البزيد
فلماذا طال ، رغم الملتقى ، هذا السفر ؟
ولماذا جف في الليل على نافذة المقهى المطر ؟
وعلى الأشجار في الشارع والقلب وأسوار السجون ؟
وأنا أغرق في نهر الجنون
عندما عدنا ، وعاد العاشقون
يذرفون الدمع في صمت ، ويبنون جسور

ولماذا خذلتْنا ، يا إلهي ، الكلمات
عندما معجزة القديس لم تنفع ولم ينفع عويل الساحرات
بعد أن سرنا وسار النهر في جثة « تموزَ » الى البحر البعيد
عاد يطفو من جديد
حاملاً تاجاً من اللَيْلَك والعشب وأزهار جبال المستحيل
وعلى تابوته النهريِّ طارت بجعةٌ كادت وهمّت بالرحيل
وعلى الشطآن أضواء قناديل الربيع
وعويل الكهنة
تحت أقواس رماد الأزمنة
وَهُمُ يبكون « تموزَ » القتيل
حاملين القمر الميت في موكب عشتارَ الجليل
آه من ليل المحبين الطويل
وقطارات الجليد
وعذابات الرحيل
باطل ، لا شيء تحت الشمس ، يا حبي ، جديد
آه عرِّيني من العُري ومن ثوبي الثقيل
فأنا نائمة وحدي ، هنا ، تحت سماوات مجاذيب النخيل
لم يقبِّل شفتي انسٌ ولا جنٌ ولا طيف حبيب
باعني النخّاس للسلطان ، والسلطان للعبد الطريد
فأنا عبدةُ عبدِ «الأسود ـ الأبيض» في مستنقع الشرق الكريه
آه عرِّيني وعرِّيها ، وسرنا خطوات
فلماذا خذلتنا ، يا إلهي ، الكلمات

عندما معجزة القديس لم تنفع ولم تنقذ هوانا الصلوات
وعويل الساحرات
وهي في المذبح بعد العاصفة
تتمرّى في عيوني خائفة
لم نَقلْ شيئاً ، وسار النهر للبحر البعيد
وافترقنا والتقينا ، وابتدأنا من جديد

المجوسي

1

سكبـوا فوق ثيـابي الخمرَ ، عـربدتُ من الحب ، وراقصتُ الفراشاتِ وعانقتُ الزهور

منحوني عندليباً وقمر
ومرايا وتعاويذَ وَقَطْرات مطر
وأنا لم أَتَعَدَّ العاشرة
فلماذا عندليب الحبّ طار
والمرايا صدئت فوق الجدار ؟
ولماذا استرجعوا مني القمر
والتعاويذ وَقَطْرات المطر
عندما قلبي على أرصفة الليل انكسر ؟

2

المجوسيُّ من الشرفة للجار يقول
يا لها من بنت كلبة
هذه الدنيا التي تُشبعنا موتاً وغربة
كان قلبي مثل شحاذ على الأبواب يستجدي المحبة
وأنا لم أتعدّ العاشرة

فلماذا أغلقوا الأبواب في وجهي ؟
لماذا عندليب الحبّ طار ؟
عندما مات النهار

3

ساحر يأتي مع الليل وسحر لا يدوم
باطل ما تكتب الريح على السور وما قالت الى البحر النجوم
كان حبي لك موتاً ورحيل
يا وصايا النار ، يا أرض سدوم

4

وجدوه عند باب البيت في الفجر قتيل
وعلى جبهته جرح صغير وقمر
وتعاويذُ وَقَطْراتُ مطر

أزمنة الصيف الذي يموت
وجسد الوردة تحت قبلات النور
مُغْتَصَبٌ مبهور
والشاي فوق النار يغلي
ـ مَنْ هنا
أسطوانة تدور
ـ لا أحدٌ
يتّحد الليل مع النهار
وجسد الوردة فوق النار
وأنت تحت شفتي كاهنة تبوح بالأسرار
ذبيحة علّقها الجزار
من ثديها العاري على الجدار
يا امرأة تصعد من مغاور النعاس
والسحر والخرافة
تضاجع الساحر والشاعر والمقاتل
ووردة الصيف التي تموت في الخمائل
تبوح تحت شفتي بسرها المخاتل
تمنحني طفولة النهار
وفرس البحر وياقوت كهوف النار
وجرس الأمطار

ـ لا أحدٌ
كنا بأعماق ليالي بابل
كنا على أسوارها نقاتل
أنا وأنتِ نرتدي أقنعة العشاق
كنا على الأسوار
نموت تحت قُبَل الصيف الذي يموت
نجري وراء عربات النور
أنا وأنت نرتدي . . كنا على . . أسطوانة تدور
نسرق ياقوتةَ عين ساحر المدينة
ندور في أحيائها أغنية حزينة
يا امرأة الميلاد والموت الذي تنتظرين في صياح الديك
وضحكات الغَجَرِ الملوك
من أين تقبلين ؟
وأين تذهبين ؟
كنا على الأسوار
أنا وأنت نرتدي أقنعة العشاق ميّتين
نرفع للفرات قربان إله الطين
وجسد الوردة تحت قبلات النور
مغتصب مبهور
وأنت تضحكين
عارية للشمس تضحكين
كنا على أسوارها نمارس الطقوس

يا امرأة تُغتصبين في كهوف النوم
في حدائق الفرات تحت قبلات الطين
وأنتِ تولدين
من أين تقبلين ؟
وأين تذهبين ؟

الرائي

كتبت فوق شجر الخابور
تاريخ ميلاد وموت فارس النحاس في آشور
وقطرات المطر المسحور
وجرة الذهب
ونحلة الحب وثورات شباب العالم المأخوذ
وساحرات بابل
والقمر المدفون في المزابل
لكنني أدركت ما أدركه الرائي وما خبأه المقدور
في النور والنار وصمت البحر والياقوت
والجوهر المكنون
ولم أكن أحرق روما أو أُسلّي شعبها المقهور

ثلاثة رسوم مائية

1

تتفجر الأضواء عبر مخاضة اللون القتيل على الجدار
رحلتْ ولكن الربيع على الوسادة لا يزال
مستلقياً عريان تغمره الظلال
رحلتْ كما رحل النهار
لكنه رش النجوم على النوافذ وهي لم تترك سوى هذا الرماد
يا سندبادُ ألم تكن يا سندباد
تغزو المرافىء والقلوب مُخَلِّفاً في كل ميناءٍ سفينك في اشتعال
فعلام أطفأت الذبال ؟
ورحلتَ أو رحلتْ ، كما ارتحل المجوس الى الجبال
وعلام كفّ القلبُ في صمت البحار عن الحوار ؟
وماتت المدن البعيدة والمرافىء والنهار ؟
ووجوه حوريات أعماق البحار ؟

2

ماذا يقول العندليب ؟
للسائرين بنومهم ، ماذا يقول العندليب ؟
غدرت بك الألوان والدنيا كما غدرت بعاشقها لعوب

ورحلتَ وارتحلتْ كما ارتحل المجوس
بلا طقوس
هرباً من الظلمات والأموات والليل الطويل
ومخاضة اللون القتيل
فعلام كاشفت الوجود ؟
ووقعت في شرك الوجود
متفجراً من داخل الأشياء منفياً تموت
ومدمراً في كل ميناء حياتك في غياب الآخرين
ومطارداً للنور في هذا الكمين
يا أيهاالوثنيُّ ، يا قلبي الحزين

3

تتنكرين بزي ساحرة وفي ورق الخريف أميرةً تتقنّعين
وتضاجعين البرق في قاع البحار وفي الجبال غزالةً تتراكضين
وعلى وجوه العاشقين فراشةً تتراقصين
ومع الطيور تهاجرين
وعلى زجاج نوافذ المقهى وفي ليل الشوارع تشعلين
نار الحنين
وعلى سطوح منازل المدن البعيدة تمطرين
وأنا أموت كقطرة المطر الحزين
متنكراً بقناع أعياد الطفولة أو عناد الرافضين

متحسساً رأسي وأنت مع القوافل ترحلين
وتمارسين السحر في الواحات كاهنةً وفي سعف النخيـل تلوِّحين
للسائرين بنومهم والهائمين
وتضاجعين الميتين
وتهوِّمين وتختفين
وإلى بلادك ترحلين
وأنا أموت كقطرة المطر الحزين
على وجوه العابرين

كتابة على قبر السياب

أصعد أسوارك ، بغداد ، وأهوي ميتاً في الليل
أمد للبيوت عيني وأشمُّ زهرة المابين
أبكي على الحسين
وسوف أبكيه إلى أن يجمع الله الشتيتين وأن يسقط سور البين
ونلتقي طفلين
نبدأ حيث تبدأ الأشياء
نسقي الفراشات العطاش الماء
نصنع من أوراق كراساتنا حرائقْ
نهرب للحدائق
نكتب أشعار المحبين على الجدار
نرسم غزلاناً وحوريات
يرقصن عاريات
تحت ضياء قمر العراق
نصيح تحت الطاق[1]
بغداد ! يا بغداد يا بغداد
جئناك من منازل الطين ومن مقابر الرماد

(١) الطاق : هو إيوان كسرى الواقع بالقرب من بغداد ، وقد كنّا نذهب إليه ـ ونحن صغار ـ صائحين تحته فيردّد صدى ما كنّا نقوله

نهدم أسوارك بعد الموت
نقتل هذا الليل
بصرخات حبنا المصلوب تحت الشمس

عن وضاح اليمن
والحب والموت

1

يصعد من مدائن السحر ومن كهوفها وضاح
متوجاً بقمر الموت ونار نيزك يسقط في الصحراء
تحمله إلى الشآم عندليباً برتقالياً مع القوافل السعلاة
وريشة حمراء
ينفخها الساحر في الهواء
يكتب فيها رقيةً لسيدات مدن الرياح
وكلمات الحجر الساقط في الآبار
ورقصات النار
ينفخها في مجلس الخليفة
فتستحيل تارة قصيدة
وتارة لؤلؤة عذراء
تسقط عند قدمي وضاح
يحملها إلى السرير امرأة تضج بالأهواء
تمارس الحب مع الليل وضوء القمر المجنون
تهذي ، تغني ، تنتهي من حيث لا تبدأ ، تستعيد
تعود عذراء على سريرها خجلى من الليل وضوء القمر المجنون
تفتح عينيها على رماد نار نيزك يسقط في الصحراء

وريشة حمراء
يَنْفُخها الساحر في الهواء
فتستحيل تارة غزالة
قرونها من ذهب وتارة كاهنة تمارس الغواية
ولعبة النهاية
في حرم الخليفة
وليلهِ المسكون بالأشباح والملالة

2

لم أجد الخلاص في الحب ولكني وجدت الله

3

قبّلْتُ مولاتي على سجادة النور وغنيتُ لها موّال
وهبتها شمس بخارى وحقول القمح في العراق
وقمر الأطلس والربيع في أرواد
منحتها عرش سليمان ونار الليل في الصحراء
وذهب الأمواج في البحار
طبعتُ فوق فمها حبي لكل ساحرات العالم النساء
وقُبلَ العشاق
بذرتُ في أحشائها طفلاً من الشعب ومن سلالة العنقاء

4

من أين جاءت هذه الأشباح ؟
وأنتَ في سريرها تنام يا وضاح
لعلها نوافذ القصر ، لعل حرس الأسوار
لم يغلقوا الأبواب

5

رأيت في نومي على نهديك نهر الموت
يشق مجراه بلحم الصمت
وكلب صيد ينهش النهدين
وطائر السمان
يبدأ في رحيله عبر مدار غربة الإنسان في العالم والأشياء
ووجه عبدٍ من عبيد القصر
يطل من عيني ومن مرآة هذا الفجر
مقبلاً نهديك في نومي رأيت العبد
ممدداً وعارياً فوق سرير الورد
مبتسماً للغد
من أين جاءت هذه الأشباح
وأنت في سريرها تنام يا وضاح
لعله الواشي الذي أراح واستراح

لعله الخليفة
أطلقَ في أعقابك العبدّ وكلب الصيد والكابوس

6

من قبل أن يولد في الكتب
وفي الروايات وفي الأشعار
عطيل كان كائناً موجود
تنهشه عقارب الغيرة يا وضاح
من قبل أن يُولد في الكتب
عطيل كان قاتلاً سفاحْ
لكن ديدمونة
في هذه المرة لن تموت
أنت إذن تموت !
أنت إذن تموت !

7

عطيل في عمامة الخليفة
يواجه الجمهور
بسيفه المكسور

8

لم أجد الخلاص في الحب ولكني وجدت الله .

9

متُّ على سجادة العشق ولكن لم أمت بالسيف
مت بصندوق وألقيتُ ببئر الليلِ
مختنقاً مات معي السر ومولاتي على سريرها
تداعب الهرة في براءة تطرز الأقمار
في بردة الظلام
تروي إلى الخليفة
حكاية عن مدن السحر وعن كنوزها الدفينة
ويدرك الصباح ديدمونة

مجنون عائشة

1

أيقظني في الليل
غناءُ عصفور فأوغلت مع العصفور
في الغيهب المسحور
لم تستطع سجنَ الربيع آه في بستانها
رأيت غُصناً مزهراً يطل في الديجور
عليّ من فوق جدار النور .
بكيت ؛ فالربيع مرَّ ثم عاد وأنا ما زلت في بوابة البستان
مُصلياً لغُصْنهِ المزهر، للنور الذي يأتي من الداخل، للألوان
وحاملاً نذري إلى عاصمة الخلافة
وحجر الحكمة والخرافة
لعل نجم القطب
يصير لي جسراً على نهر جحيم الحب
فأعبر الصحارى
أمشي وراء ناقتي والفجر قُدامي إلى بخارى
أعود منها حاملاً نذري إلى دمشق
مطارداً وجائعاً للحب .
أكتب فوق سورها معلقاتي العشر .

أعقر في بوابة البستان ناقتي وأمضي هائماً في الفجر
ممرغاً وجهي بعطر الزهر
مخبئاً وراء قاسيون
موتي وموت المدن الأخرى التي أصابها الطاعون
وقمر الطفولة المجنون

2

خبأتُ وجهي بيدي
رأيت
عائشةَ تطوف حول الحجر الأسود في أكفانها
وعندما ناديتُها هوت على الأرض رماداً وأنا هويت
فنشرتنا الريح
وكتبت أسماءنا جنباً إلى جنب على لافتة الضريح

3

سينتهي النهار
عما قريب ، ضمني بين ذراعيك وخُذْني نحلة عطشى إلى الأزهار

سينتهي النهار
بين ذراعيك وبين البحر والسماء والصحراء
قالت ومدَّت يدها للنار
فاحترقت سفينةٌ في بحر « قزوينَ »
وغاصت في دم الأمواج
وفتحت للبدويِّ وهو في غربته الأبواب

فسار لا يلوي على شيءٍ وراء كوكب الصباح والناقة والسراب
فوق سرير هذه الأرض التي تنهار
لتلد الرجال والأفكار

4

وا أسفاهُ ذهبت صيحاتنا سدى

5

تعرّت الأشجار
وسقطت أوراقها وكنستها الريح
ونحن في المنفى غريبا غربتين نرتدي الأكفان
نبحث في المعنى عن المعنى وفي سفر الخروج لم نجد بوابة البستان
ولا تعازيم سقوط مطر الأسفار
ولم نجد عشتار .
كانت خيام الحب في الصحراء
منهوبة والبدوي حولها يداعب الرباب
وكانت الغزلان
مذعورة تبحث في مصيدة الموت عن الغدران .
قالت وكنا نبرح « اللوفر » مأخوذين
غريب غربتين
أنتَ فَخذني نحلةً عطشى وَضُم هذه النحلة في المابين
بكيت فالربيع في باريس
يُولد مرتين . .
في شكل امرأة

ترهص بالبراعم الخضراء والضياء والمطر
تضحك هازئة

6

شاة بلا قلب يداوون بها المجنون

7

رسائلي وكتبي أحرقها الفاشست
من قبل أن أكتبها في القلب
وختموا فمي بشمع الصمت
لكنني هربت من عاصمة الخلافة
مطارداً وجائعاً للحب
وقاتلاً مقتول

8

في زمن الفوضى وعصر الرعب
أشعلت نار الحب

9

وا أسفاه ذهبت صيحاتنا سدى

10

للغة القبيلة القادمة الجديدة
لوثن القصيدة
أتبع موتي حاملاً رأسي إلى الخليفة
في طبقٍ
فلتمطر السماءْ
دماً وأرجوان

11

كنا حبيبين طريدينِ وملعونَين
ما بين نارين وعالمين
نكابد الغربة في المابين

12

أواه ما أقسى عذاب الحب
حين يغيب في سماء الليل نجم القطب
وحين يعوي الذئب

13

لا أستطيع شرح سر قمر الصحراء
وضحكات الجن في مدافن القبيلة
خواتمُ تلمع في الظلمة قالت وبكت كم ليلةٍ إليك
نظرتُ من كوةِ قبري وأنا أغالب الأرق
وجسدي يغسله الفجر وخدي فوق خد الأرض
وفمها فوق فمي
لا أحد جاء
ولا ذهب
من بحر « قزوين » إلى حلب
أنام في أرجوحة القمر .
وسكتت ونحن في « اللوفر » ضائعان
في زحمة البشر

نسير في أعقابهم أموات
نبحث عن أصواتنا في ضجة الأصوات
نبحث في المعنى عن المعنى وفي سفر الخروج لم نجد
بوابة البستان
ولا تعازيم سقوط مطر الأسفار
ولم نجد عشتار
وكانت الشمس الربيعيَّة
تصبغ في حمرتها أشجار باريسَ الخرافية
- جميلةٌ أنتِ
وقبَّلتُ فم الأرض وقبلت يد الأشجارِ
- جميلةٌ
وطار عصفورٌ وحطّ ينقر البذار
فاقتربت عائشة وداعبته فلوى منقاره وطار
أحس بالمطر
من قبل أن يسقط في الشوارع المشمسة المعطار
سنلتقي في الساعة العشرين
قالت
وكنت ميتاً داخل نفسي
ضائعاً
مستلباً
طريد
مرتحلاً وعائداً وحيد
أمشي وراء ناقتي وغصنُها المُزْهرُ قدّامي إلى باريس

الأميرة والغجري

1

أدخل في عينيك
تخرجين من فمي
على جبينك الناصع أستيقظ
في دمي تنامين على سرير أمطار صحاري التتر الحمراء
مجنوناً أناديك بكل صرخات العالم الوحشية السوداء واللغات
كل وجع العاشق في قاع جحيم المدن
العاشق والولي والشهيد
في دمي تنامين
أنا أدخل في عينيك
أهوي ميتاً فوق سرير النار
أستلقي على صدرك في الحلم
تنامين على الأهداب
مجنوناً أناديك
على صدرك أستلقي
على صياح ديك الفجر في مملكة الله وفي مملكة السحر وفي
أصقاعها أواصل الرحيل

2

مهاجراً يموت
حبي على أسوار هذا اللهب الكامن في عينيكِ
في صمتك ، في صوتك ، في جبينك
الممتقع المسحور

3

حبي أغنيةٌ كتبتها ساحرةٌ فوق معابد عشتار
في فجر الانسان الأول قبل الألف الثالث من آذار
بعد الطوفان وقبل النَّفي إلى الصحراء

4

من صحراء التتر الحمراء
من باريس إلى صنعاء
كانت عربات الغجر السعداء
تمضي حاملةً مولاتي وأنا خلف العربات
عطشي يقتلني ، جوعي ، فأضم غزالة
شمس الواحات
وأضم العالم في كلمات

5

مجنوناً كنت أنادي باسمك كل الأسماء
كل المعبودات وكل زهور الغابات وكل الّربات
كل نساء العالم في كتب التاريخ وفي كل اللوحات
كل حبيبات الشعراء
مجنوناً كنتُ أنادي الله

6

أعود من مملكة الله ومن مملكة السحر على أجنحة النهار
مجنوناً أناديك
بكل صرخات العالم الوحشية السوداء واللغات
كل وجع الأرض إلى الأمطار والشموس في ليل شتاء مدن العالم
مجنوناً أناديك
وفي بيروتَ أو بغداد أو باريس
عن عينيك عن وجهك في قصائد الشعر وفي واجهة المخازن الخضراء
في شواطىء البحار والغابات
عن عينيك عن وجهك في اللوحات والرسوم
مجنوناً أناديك
على جبينك الناصع أستيقظ في منتصف النهار

أستلقي على صدرك
في أصقاع عينيك
وفي سمائها أواصل الرحيل .

7

حبي أكبر مني
من هذا العالم
فالعشاق الفقراء
نصبوني ملكاً للرؤيا
وإماماً للغربة والمنفى

8

باسمك ، مجنوناً ، كنت أنادي الله

أحمل موتي وأرحل

1

ناديتُ غزالة حبي في الصحراء الليبية ـ في العهد الملكيِّ البائد ـ كان البوليس ورائي ـ فاجأني البحـر الأبيض بالجـزر المخبـوءةِ تحت لسان عـروس الماء وتحت عيـون الأسطول السـادس ـ كنت وحيـداً ـ كـان البـوليس ورائي ـ والليـل الملكيُّ ـ ولارا تسبـح في البحـر الأسـود ـ في سـوجي ـ وخـزامى في إربدَ ـ في ضـوء بنادق حـرب التحريـر الشعبية للأرض الحبلى بـالثـورة تـرنـو وتصلي ـ فـاجـأني البحـر الأبيض ـ كنت وحيداً ـ أبحث في الصحراء الليبية عن مفتاح المـدن المنسيّة في خـارطـة الـدنيـا ـ لارا تنشـر في الـريـح ضفائرها ـ ترقص في الغابات الوثنية ـ تمضي عائدة للفنـدق بعـد عنـاق البحـر ـ وفي منتصف الليـل عشيق آخـر ينسـل إليها .

ويُعريها

ويُقبل عينيها

ويقبِّل نهديها

ويقول لها نفس الكلمات

وتقول له نفس الكلمات

(أحبك)

لارا ـ هي والآخر

كانت تبكي ، فالبحر سيأخذ منها الآخر
كانت تبكي ويدي تمتد إليها ويد الآخر
وفمي في فمها وفم الآخر
ودمي ودم الآخر
وحياتي وحياة الآخر
كنت وحيداً ـ يا حبي المدفون بقاع البحر الأسود
يا شمس ربيعي في الغابات الوثنية ـ يا حبي
كان البوليس ورائي ـ في الصحراء الليبية ـ
في العهد الملكي البائد ـ في قاع الدنيا
فاجأني البحر الأبيض

2

يحمل العاشق في غربتهِ
موته ، تاريخه ، عنوانه
وعذاباً كامناً في دمه
وحضوراً أبدياً كانه

3

يتفرق الأحباب قبل صياح ديك الفجر
في المدن الكبيرة يرحلون ويتركون

ما تترك العربات فـوق الثلج : ها هي ذي السماء
زرقاء من بعد الرحيل
والشمس تشرق من جديد فوق أشجار الحدائق والبيوت

4

« لارا » و « خزامى »
في صحراء الليل الوثنية أشعلتا النار

5

« لارا » رحلت بعد رحيلي
ضاعت في زحمة هذا العالم
في غابات البحر الأسود والأورال
عادت للأرض المسحورة تذرعها
في قداس رحيل الأمطار
و « خزامى » نذرتْ للبحر ضفائرها
ولنجم الميلاد
وأنا حطمت حياتي
في كل منافي العالم
بحثاً عن لارا وخزامى
وعبدت النار
مارست السحر الأسود في مدنٍ ماتت
قبل التاريخ وقبل الطوفان

واستبدلت قناعي بقناع الشيطان
ظهـرت لي لارا وخـزامى في مـوسيقى الأشعـار
في حــرف السين وحرف الهاء وحرف التاء

6

برحيلي رحلت كل الأشياء

1

انتظرتك عشرين عاماً في المنفى دون جدوى
حتى وجدتك في الوطن
أيتها المعبودة ، أيتها الحمامة المقدسة
أنت منفاي ووطني
وقصيدتي المنتظرة
عندما أراك تدب الحياة في عروقي
وعندما تختفين ، تنطفىء النار
والسحابة والبرق والمطر في قلبي .
أيتها المعبودة التي قهرت جميع معبوداتي
وتربعت ملكة على عرشهن
آمنتُ بك
وبكلماتك
وإبداعاتك التي رأيت في سطورها
شمس العالم وهي تولد من جديد

2

لقد هبطت بمعجزات حبك على أرض كوكب جديد
لأكتب على متون مسلاته
ونوافذ عماراته

وأجنحة فراشاته
وخدود نسائه
إنني أحبك
إنني أحبك

3

أمارس طقوسي السحرية
على خريطة جسدك في الحلم
وعندما أستيقظ تتفتح ألف زهرة
على صحن خديك الخجلين
فأعود لأمارس طقوسي ثانية
بكلماتي التي أبعثرها
كما يبعثر الساحر رماد كلماته في الهواء

4

العاشق الطفل على جواده الناريِّ فوق الكوكب الجديد
يكتشف الغابة والينبوع
وهو على خريطة الجسد
يعكف في الحلم على بحيرة العيون
منتظراً تحولات النور
وصرخة الولادة الجديدة
في جسد الطبيعة
وزرقة السماء في القصيدة

5

تأوهات وعناقات : رأيت فرس البحر على الساحل والقمر مقترباً منها، فأغوته؛ رأيت فمهـا في فمه ويـده في شعرهـا تغيب

6

الفرس الحبلى وراء القمر ـ الجواد
تصهل قبل ساعة الميلاد
ليلد البحر عصافير وساحرات
والأرض معجزات

7

الوطن الممتد كالقوس من القلب الى القيثار
الوطن الممتد كالسيف من النهر إلى الصحراء
يرهص بالشارات والأصوات
بخضرة الربيع في عينيك بالمخاض
الوطن ـ المنفى من الأعماق
متوجاً يصعد بالشمس وبالأسطورة
الوطن ـ الطفولة
رأيت مولاتي على أطرافه عمود نور يغمر الفرات
تحط آلاف العصافير على أكتافها وتُولد المُدن
بيضاء في الحلم

8

مقيداً بالنار والسلاسل
أعود للمنفى مع الطيور والقوافل
منتظراً قيامة الشاعر والساحر والمقاتل
من تحت قوس القلب والقيثار
من تحت سيف النهر والصحراء

9

أعبد في عينيك هذي النار
ووجهك الشاحب والضفيرة
والغربة ـ الطفولة ـ الأسطورة

10

عشقتك في المنفى وأنت صبيةٌ
وكان هوانا في الجوانح يكبرُ
فلما التقينا بعد نأيٍ وغربةٍ
رجعنا الى أرض الطفولة نبحر
كأنا وُلدنا من جديدٍ بكوكبٍ
هو الوطن الموعود أو هو أبعد
أقول لعينيك اللتين تلاقتا
بعيني أكان الأمس مرّ أو الغدُ
لقد أقبلت كل العصور وكل ما

هفوت له يوماً وما كنت أضمر
بخضرة عينيك السماء تلونت
وباحت بما تُخفي الطبيعةُ أنهرُ
وقال مغنيها هو الحب فاحترق
فنارك بعد اليوم هيهات تخمد

11

حلفتُ بالمعابد المكسوة القباب بالذهب
بالحرف والغربة والسفر
أن أرحل الليلة نحو مدن الحلم
وأبني لك أهراماً على الفراتِ
في نار عصور البعث والثورة والأمل

12

العشاق الصغار
يمحون أسماء حبيباتهم ويبقون على اسم الأخيرة منهن فقط
أما أنا فلقد أبقيت عليهن ليخدمنك
واذا أمرت فسأطردهن في الحال

13

حتمي أمري الحرف
قدري ، ناري الحرف

وطني ، منفايَ الحرف
نظري في قلبك ، نوري الحرف
فلتقتبس الحرف ، كما تقتبس النار من النار
أنت السيد والمولى
وأنا بك أولى
فإذا أرسلتك تنظر في أمر الحرف
فلتُخرج ألفاً من باء
باءً من باء
ألفاً من ألف
مولاتي خامرها الخوف
فإذا جاء الليل
فلتفتح أبواب القلب
ولتُطلق عبدك من أسر الحرف
فأنا خادمُ مولاتي
عاشقها
تابعها
في الوطن ـ المنفى

14

قلبي هرم خوفو الكبير
أراك تضطجعين في مقصورته الملكية
ماسةً مشعةً منذ آلاف السنين

وأنا عبدك   أقبل يدك
وأحرس كنوزك الإلهيَّة
وأرعى الغزلان في حدائق قصورك
الغارقة في النور

15

خيط الدم الذي ينزف من قلبي
يمتد من باريس الى عتبة بيتك

16

لقد عدت الى الوطن
لكي أحبك

السمفونية الغجرية

1

كان المغني الغجريُّ يرشقُ العذراءَ بالوردةِ
والعذراءُ مثلَ ريشةٍ تدور حول نفسها
تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مَشارف « الحمراءِ »
مقتولاً تغطي صدره الخناجرُ ـ الزنابقُ ـ النجومُ .
كان الغجريُّ شاحباً يطرد في غنائه الأشباحَ
كانت يدهُ ترسم في الهواء شارةَ الغريق ـ العاشق ـ المخدوعِ
والعذراءُ مثل ريشةٍ تطيرُ خلف يده الراجفةِ ، الضارعةِ
« الحمراءُ » كان غارقاً كعهده بالصمتِ.
صاح الغجريُّ استيقظي أيتها الأعمدةُ ـ الهياكل ـ الأقواسُ
يا مكعبات النور في قصيدة المستقبل ـ النبوءة ـ الرحيل
صاح استيقظي أيتها الأسطورةُ ـ القبيلةُ
العذراءُ مدت يدها ليده وعانقتها
رقصا معاً وأصبحا لسانَ لهبٍ
فاشتعلت في شَعْرِها الوردةُ .
صاح الغجريُّ احترقي أيتها الصغيرةُ الحسناءُ .
مال رأسها ، تلاقت العيون والشفاهُ
هذا زمنُ الموت على وسادة الربيعِ .
مال رأسه فأحتضنته وهو يبكي

يطرد الأشباح في غنائه الصاعدِ من قرارةِ
الأسطورة ـ القبيلة
« الحمراءُ » كان غارقاً كعهده بالصمت والفجرُ
على أبوابه يرسم أشجاراً وقبرات ليلٍ راحلٍ .
تلاقت العيونُ والشفاهُ
صاح الغجريُّ خائفاً توقفي أيتها الريشةُ في
مدار هذي اللعبة ـ الفاجعةِ .
العذراء دارت دورتينِ
وقفتْ
تحاولُ اللحاقَ بالليل الذي كان على مشارف « الحمراءِ »
مقتولاً تغطي صدرَهُ الخناجر ـ الزنابق ـ النجومْ

2

توقفت هجرةُ أحزان المغنى ،
وَقعَ الطائر في الكمينِ ،
مرت عرباتُ الغجر ، الليلةَ ، في وحول هذا
الشارع المحاصر ، المسكون بالأشباح .
كان الغجريُّ يمسح السكين بالمنديل ثم
يعبر الشارع محشوراً مع الأشباح في المقهى
يغني خائفاً لنفسه . قارئةُ الكفِ له قالتْ
هناك مدن رائعةٌ أخرى وراء النهر ، حيثُ الشمسُ

لا تغيب في الليل ، ولا يُخدعُ فيها العاشق ـ الغريقُ
في منتصف النهر ، ولا ترحل فيها الريشةُ ـ العذراءُ
صاح اقتربي فإنني رأيتُ عينيكِ بأسفارِ
النجوم ـ الريح ،
أجدادي على بوابة الشمس
وفي المدافن السرية ـ الكهوف ، كانوا يرسمونَ
وجهك الغارقَ بالنورِ،
وكانوا كلما عاد الربيعُ أحتفلوا بعودةِ الروحِ
الى الطبيعة الميّتةِ .
الأشباح غابتْ واختفى المقهى
وكان الغجريُّ راكعاً يبكي ،
وكانت يدُهُ في يدها
قارئةُ الكف له قالتْ : هناك مدنٌ رائعةٌ أخرى
وراء النهر ، فآرحلْ
فَهُنا ، الخطوطُ في كفكَ ، لا تقولُ شيئاً .
طفقتْ تبكي ،
وكان الغجريُّ راكعاً يبكي على مكعبات النورِ
في قصيدة المستقبل ـ النبوءة ـ الرحيل
صاح استيقظي أيتها الأعمدةُ ـ الأقواسُ
في وحول هذا الشارع المحاصر ، المسكون بالأشباحِ
كانت يدهُ في يدها صماء ، لا تقولُ شيئاً
نهضتْ قارئةُ الكفِ ودارتْ دورتينِ ،

وقفتْ
تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مشارف « الحمراء »
مقتولاً تغطي صدره الزنابق ـ الخناجر ـ النجومْ

1

قالت : ما أقسى ، حين يغيبُ النجم ، عذابَ العاشق أو حين يموت البحر . انتظريني ـ قال المجنون ـ وظلي ميتة بين الموتى واقتربي من ضوء الشمعة ، ان الله يرانا ويرى وجهي الخائف مقترباً من وجهك محموماً تحت نقاب الدمع . اقتربي ، فدموعك في شفتي ملح البحر وطعم رغيف الخبز . انتظرينى ، قال المجنون

2

كانت أغصان السرو وأشجار الدفلى تُخفي عني مدناً ونجوماً ، تسبح في عطر بنفسج ليلٍ يصعد من أغوار القلب الانسانيِّ ، وكانت امرأة عارية فوق حصان تضحك في العاصفة . انتظريني ! لكن البحر الميِّت غطاها بالأعشاب وبالزبد المتطاير في الريح . اقتربي ، ناداها ، لكن صهيل حصان البحر الأسطوري تمزَّق فوق صخور الشاطىء ، وانطلقت بضفائرها الذهبية ، تعدو عارية ، آلهة الشعر المجنون الى « دلفي » تبكي أقدار الشعراء

3

كانت في الفجر تمشط شَعرَ الأمواج
وتداعب أوتار القيثار

4

كانت بضفائرها الذهبية ترقص عارية تحت الأمطار

5

دهمتني ، وأنا في منتصف الدرب الى « دلفي »
صاعقةٌ خضراء

6

كنا أربعة : أنا والموسيقيُّ الأعمى
ودليلي
ومغني آلهة « الأولمب » الحكماء

7

حملتني في البحر « الأيجيِّ » الى « دلفي » أشرعة الفجر البيضاء

8

وضعوني في باب المعبد أخرس مشلولاً
وضعوا فوق جبيني زهرة عباد الشمسِ
وغطوني برِدَاءْ

9

قالوا انطق باسم الحبِّ
وباسم الله
وتكلَّمْ واقْرأْ هذا اللوح المحفوظ وراء المحرابْ

10

شَقَّ ملاكٌ صدري
أخْرَجَ من قلبي حبةَ مسكٍ سوداءْ

11

قال اقرأ ، فقرأت وصايا آلهة الشعر المكتوبِ على الألواح
صَعَدَتْ كلماتي من بئر شقاء العشَّاق الشهداءْ

12

كانت تستلقي بضفائرها الذهبية عارية فوق رمال الشاطىء
تبكي عند مغيب النجم حصان البحر الأسطوري وترسم
في الأفق دوائرَ حمراءَ وتهمس للريح : اشتعلي يا نار
الحبِّ ، وكُوني شارة هذا الليل الأبدي القادم من أطلال
المدن الإغريقية ، كوني مغزل نار قميص الفجر الشاحب ،
كوني مفتاح الباب المغلق واشتعلي حباً يا قطرات المطر
المتساقط في كل الغاباتْ
كانت ترسم فوق الرمل عيوناً وشفاهْ
ويداً تستجدي قطرات المطر الخضراءْ
قالت فلنرحل . قال المجنون انتظري ، ظلّيّ ميتة بين
الموتى ، واقتربي من ضوء الشمعة ، إن الله يرانا ويرى
وجهي الخائف مقترباً من وجهك محموماً تحت نقاب
الدمع . انتظري ، قال المجنون

13

منحتني آلهةالشعر الصافي
وأنا في درب العودة من « دلفي»
البركاتْ
وسلاحَ الكلماتْ

3-10-1973

أولد

وأحترق بحبي

1

تستيقظ « لارا » في ذاكرتي : قطًّا تتريًّا ، يتربص بي ، يتمطّى ، يتثاءب ، يخدش وجهي المحموم ويحرمني النوم . أراها في قاع جحيم المدن القطبية تشنقني بضفائرها وتعلقني مثل الأرنب فوق الحائط مشدوداً في خيط دموعي . أصرخ : « لارا » فتجيب الريح المذعورة : « لارا »، أعدو خلف الريح وخلف قطارات الليل وأسأل عاملة المقهى . لا يدري أحد . أمضي تحت الثلج وحيداً ، أبكي حبي العاثر في كل مقاهي العالم والحانات .

2

في لوحات « اللوفر » والأيقوناتْ
في أحزان عيون الملكات
في سحر المعبودات
كانت « لارا » تثوي تحت قناع الموت الذهبي وتحت شعاع النور الغارق في اللوحات
تدعوني ، فأقرب وجهي منها ، محموماً أبكي
لكن يداً تمتد ، فتمسح كل اللوحات وتخفي كل الأيقونات
تاركة فوق قناع الموت الذهبي بصيصاً من نورٍ لنهارٍ مات

3

« لارا ! رحلتْ »
« لارا ! انتحرت »
قال البوّاب وقالت جارتها ، وانخرطت ببكاءٍ حارْ
قالت أخرى : « لا يدري أحد ، حتى الشيطان »

4

أرمي قنبلة تحت قطار الليل المشحون بأوراق خريف
في ذاكرتي ، أزحف بين الموتى ، أتلمس دربي في
أوحال حقولٍ لم تحرث ، أستنجد بالحرس الليلي
لأوقف في ذاكرتي هذا الحب المفترس الأعمى ، هذا
النور الأسود ، محموماً أبكي تحت المطر المتساقط
أطلق في الفجر على نفسي النارْ

5

منفياً في ذاكرتي
محبوساً في الكلماتْ
أشرد تحت الأمطارْ
أصرخ : « لارا ! »
فتجيب الريح المذعورة : « لارا ! »

6

في قصر الحمراء
في غرفات حريم الملك الشقراوات
أسمع عوداً شرقياً وبكاء غزال
أدنـو مبهوراً من هـالات الحـرف العـربي المضفـور بـآلاف الأزهار
أسمع آهات
كانت « لارا » تحت الأقمار السبعة والنور الوهاج
تـدعوني فـأقرب وجهي منهـا ، محمـومـاً أبكي ، لكن يـداً تمتد ، فتقذفني في بئر الظلماتْ
تاركة فوق السجادة قيثاري وبصيصاً من نور لنهارٍ ماتْ

7

« لم تترك عنواناً » قال مدير المسرح وهو يمطُّ الكلمات

8

تسقط في غابات البحر الأسود أوراق الأشجارْ
تنطفىء الأضواء ويرتحل العشاق
وأظـل أنـا وحـدي ، أبحث عنهـا ، محمـومـاً أبكي تحت الأمطار

9

أصـرخ : « لارا ! » فتجيب الريـح المذعـورة : « لارا » في كوخ الصياد

10

أرسم صورتها فوق الثلج ، فيشتعل اللون الأخضر في عينيها والعسليُّ الداكن ، يدنو فمها الكـرزيُّ الدافىءُ من وجهي ، تلتحم الأيــدي بعنـاق أبدي ، لكن يــداً تمتــدُّ ، فتمســح صورتها ، تـاركة فـوق اللون المقتول بصيصـاً من نورٍ لنهـارٍ ماتْ

11

شمس حياتي غابت . لا يـدري أحد . الحب وجـود أعمى ووحيـد . ما من أحـدٍ يعرف في هـذا المنفى أحداً . الكـل وحيدٌ . قلب العالم من حجرٍ في هذا المنفى ـ الملكوتْ

26-10-1974

حب تحت المطر

1

« واترلو » كان البدء ، وكل جسور العالم كانت تمتد لواترلو ، لتعانقه ، لترى مُغْتَربين التقيا تَحْتَ عمود النور، ابتسما ، وقفا وأشارا لوميض البرْق وقصْف السحب الرعدية . عادا ينتظران ، ابتسما ، قالت عيناها : « من أنت ؟ » أجاب : « أنا ! لا أدري » وبكى ، اقتربتْ منه ، وضعتْ يدها في يده ، سارا تحت المطر المتساقط ، حتى الفجر ، وكانتْ كالطفل تغني ، تقفز من فوق البرك المائيَّة ، تعدو هاربة وتعودُ . شوارعُ لندنَ كانت تتنهَّد في عمقِ والفجر على الأرصفة المبتلَّة في عينيها ، يتخفى في أوراق الأشجار . أجاب : « أنا ، لا أدري » وبكى . قالت : « سأراك غداً »، عانقها ، قبّل عينيها تحت المطر المتساقط . كانت كجليد الليل تذوب حناناً تحت القبلاتْ

2

عانقها ثانية وافترقا تحت سماء الفجر العارية السوداء

3

كانت تبكي في داخله سنوات طفولته الضائعة العجفاء

4

كان يراها في الحلم كثيراً منذ سنينٍ . كانت صورتها تهـرب منه إذا ما استيقظ أو نـاداها في الحلم. وكان بحمى العاشق يبحث عنها في كل مكـانٍ . كان يـراها في كـل عيون نسـاء المدن الأرضية، بـالأزهار مغـطاة وبأوراق الليمـون الضـارب للحمـرة ، تعدو حـافية تحت الأمـطار ، تشير اليـه : « تعال ورائي »
يـركض مجنـونـاً ، يبكي سنـوات المنفى وعــذاب البحث الخائب عنها والترحالْ

5

كانت تنشب في داخله معركة بين المعبوداتْ :
واحـدة مـاتت قبـل الحبِّ وأخـرى بعـد الحب وأخـرى في المابين وأخرى تحت الأنقاضْ

6

ثورة موتي كانت زلزالْ

7

و « تعال ورائي » ظلت في لحم السنوات العاري
ودم الحب المُغتال
جرحاً لا يُشفى وحنيناً قتّال

8

كان يراها في كل الأسفارْ
في كل المدن الأرضية بين الناسْ
ويناديها في كل الأسماء

9

كانت تتخفّى في أوراق الليمون وأزهار التفاحْ

10

« واترلو » كان البدء وكل جسور العالم كانت تمتد لواتـرلو ، تسعى للقاء الغرباء

11

تحت عمود النور التقيا ، ابتسما ، وقفا وأشارا
لوميض البرق وقصف السحب الرعدية ، كانا يعتنقان

12

كان يمارس سحراً أسودَ في داخله : « تأتي أو لا تأتي ؟ من يدري ؟ » مجنوناً كان

13

كانت في يده دمية شمعٍ يغرز فيها دبوساً من نارْ
« حبيني » قال لها ، واتقدت عيناه
بشرارة حزن يصعد من قلب المأساة

14

شاحبة كالوردة تحت عمود النور رآها . جاءت قبل الموعد . كانت في معطفها المطري الأزرق . قبّلها من فمها . سارا . قالت : « فلنسرع ! » ضحكا دخلا باراً ، طلبا كأسين . آقتربت منه ، وضعت يدها في يده . قالت عيناه لها : « حبِّيني» غرقا في حلمٍ . فرآها ورأته . في أرض أخرى تحرقها شمس الصحراء . ابتسما ، عادا من أرض الحلم . أراها صورته بلباس البدو الرُحل . قالت : « من أنت ؟ »

أجاب : « أنا لا أدري » وبكى . كانت صحراءٌ حمراءُ

تمتد وتمتدُّ الى ما شاء الله

لتغطي خارطة الأشياء

15

عانقها ، قبّل عينيها. لندنُ كانت تتنهّد في عمقٍ

والفجر على الأرصفة المبتلة في عينيها يتخفّى في أوراق

الأشجارْ

16

« عائشة اسمي » قالت : « وأبي ملكاً أسطورياً كانْ

يحكم مملكة دمَّرها زلزال في الألف الثالث قبل الميلاد » .

2-12-1974

الأولى

1

ما بين ليالي القطب البيضاء ونار خرائب هذا الفجر الدامي ، تتوقف أحياناً مركبة حاملةً جثثاً وطيوراً ميتة ، تنزل منها سيدة في عمر الوردة ، تمضي في جوف الليل إلى غابات البحر الأسود ، يتبعها ويتوّجها نجم أسطوري أخضر ، تحاول أن تتوقف ثانيةً ، لكن الريح تناديها في جوف الغابات ، فتمضي تاركةً فوق مدار الأرض القطبي المدن ، الحانات ، قواميس الشعراء العشاق ؛ وعائدة للمركبة ـ السيدة المجهولة ـ لكنني أتبعها وأحاول أن أستبقيها في خوف الطفل وذعر الملاح بُعيد غياب النجم القطبي على أطراف الأقيانوس المهتاج ، ولكني أسقط تحت ضباب الأشجار ، وألمح من بين أصابع كفي في الأفق رحيل المركبة ـ السيدة المجهولة ، نقطة ضوء أسود في قاع إناء الأفلاك السيَّارة، تخبو وتجفُّ لتبقى فيها نارٌ لا تخبو في القاعْ .

وأوارٌ قتالْ

أحمله كل مساء وجعاً وضياعاً في الحاناتْ

فإذا جن الليل ، ينام ، ليصحو ثانية في جوف الأسحارْ

حباً مفترساً ، أعمى ، لا يُشفى أو يُروى أو يُغتال

2

ها أنذا أرحل في نومي ، ما بين ليالي القطب البيضاء ونار خرائب هذا الفجر الدامي ، أتوقف أحياناً في بارٍ أو مقهى فجرٍ أتنفس في عمق ، أزفر ، أتوقف عند نوافذ هذا البيت وذاك ، أقول لنفسي : من يدري ، قد تهبط في هذي المرة حافية تحت الأمطار بوارسو أو باريس ، أو هي نائمة خلف نوافذ هذا البيت المهجور ، سأسأل عمّال محطات المترو ، من يدري ، قد تفتح نافذة في هذا الفجر ، وتهبط منها نحو الشارع في عمر الوردة ، غامرة بضفائرها وجهي ، وأقول لنفسي وأنا أبكي في برد الطرقات : لماذا لم تتحدّث أوراق البردية عنها ؟ ولماذا لم تترك عنواناً في شباك بريد الليل الآتي ؟ وأحدِّث أشجار الشارع عنها ، وأقول لها : إني أعمى ضيّعت حياتي ما بين المنفى والمنفى ، أترقّب مركبة تهبط من بين أصابع كفي . ما بين عذاب الشعر وموتي هبطت مرات ، لكني لم أسأل أو أتساءل في حمّى دوران الأفلاك ، لماذا تركتني أبحث عنها في كتب السحر وقاع الآبار ؟

3

أحياناً ألمح إيماضاً وإشارات في قاع إناء الصمت المكسور وفي ليل الأفلاك السيارة ، ثمّة إنسان في جوف الليل يراقبني في نجم درّيٍّ آخر ، يقرأ أفكاري ويُسرّح شعري

مبتسماً ، أسمعه يتلفظ باسمي ، ويقول : تعال إذا ما جن الليل القادم أو أعولت الريح وراء جبال الأورال ، أقول له : إني أعمى ووحيد. ينطمس الصوت وأبقى فوق رصيف محطة نومي مشدوداً في حجرٍ مغناطيسيٍّ مغموراً بالظلمة في قاع جحيمي . ما بين عذاب الشعر وموتي ، ألمح إيماضاً وإشارات أخرى من مركبة تمضي ما بين خرائب هذا الفجر الدامي وسماء ليالي القطب البيضاء .

4

سيدتي المجهولة في جوف الليل تراقبني، أتنهد في حمى دوران الأفلاك .

14-5-1977

مقاطع من عذابات
فريد الدين العطّار

1

بادرني بالسكر وقال : أنا الخمر وأنت الساقي، فلتصبح يا أنتَ أنا محبوبي ، يرهن خرقته للخمر ويبكي مجنوناً بالعشق ، عراه غبارٌ ، قلبي من فرط الأسفار إليك ومنك ، فناولني الخمر ووسِّدني تحت الكرمة مجنوناً ولتبحث عن ياقوت فمي تحتَ الأفلاك السبعة ، ولتُشعل بالقبلات الظمأى في لحم الأرض حريقاً . مرآةً لي كنتَ ، فصرتُ أنا المرآة، أعريك أمامي وأرى عُريسي ، أبحث في سكري عنك وفي صحوي ، ما دامت أقداح الساقي تتحدث دون لسانْ .

يا روح عناصر هذا العالم ، يا أضواء اللّيل الفضيةِ والزرقاءْ

ها أنذا أسجد في الحضرة سكرانْ

ضيفاً لمليكة هذا الليل المسكون بروح الصهباء

أهذي والخمر معي تهذي ، قيثار العشق ، أُعريك أمامي في الحانْ

ما كنت أبوح بحبي ، لو لم تسكب هذي الغاباتُ الملكية خضرتها في الماء

2

ما في الجبة إلاّ الإنسانْ

3

مرآةً لي كنت ، فصرت أنا المرآة

4

أعقرُ ناقة هذا الليل الصحراوي الأسيان، وأهذي بجوار الدن
المجروح أقولُ : سيأتي عصر أو زمن يُصبح فيه الإنسان
سديماً لأخيه الإنسانْ
(ومليكاً للأفلاك . . .) السبعة ، يرهن خرقته للخمر
ويبكي مجنوناً بالعشق، وتنهض عائشة من تحت الأعشاب
البرية والأحجار السوداء غزالاً ذهبياً تعدو وأنا أتبعها تحت
الكرمة مجنوناً ، أمسكها وأُعريها وأرى عريي . مرآة لي
كنت ، فصرت أنا المرآة . أقول : سيأتي ! لكن الريح
وراء الأبواب تراقص أجساد الأشجار العارية الصفراء
وتُلقي بمصابيح الشعراءْ
في قاع الآبارْ
ما كنت أعري جرحي في الحضرة لو لم أفقد عائشةً
في حان الأقدار

ما كنت أبوح بسري للنجم الثاقب لولاكْ
لا غالب إلاّ الخمّار ، فناولني الخمر ووسِّدني تحت الكرمة مجنوناً
ولتبحث عن ياقوت فمي تحت الأفلاك

5

حولك في النوم أطوف وأسقط في كابوس الصحو الملتاثْ

6

لن أُهزم حتى آخر بيت أكتبه ، فلنشرب في قبة هذا الليل الزرقاء
حتى يدركنا الليل الأبدي ونغفو في بطن الغبراء

7

سأموت أنا وتموتين
فلماذا . . أفي أعراس الدنيا تبكين ؟
وتدورين ؟
يا قرة عين الساقي المجنون

8

سَفَرٌ لا حد له وسباق قذر في حلبات الدنيا ؛ والدنيا رغم

بريق نجوم الليل ، سحاب يركض مهزوماً ؛ يسقط من شرفات هواها اللص الفاتك والعبد المملوك . لماذا نرحل إن كنا قد جئنا ؟ ولماذا قبل قطاف الورد نموت ؟ لماذا في أعراس طفولتنا نبكي ونلف بخوف وندور ؟ ناولني الخمر ووسدني تحت الكرمة مجنوناً ، فالموت الحيُّ المتربص في الحانات وفي الأسواق وفي عينيْ هذا الساقي يُغمد في صدري سكيناً ؛ أصرخ ، لكني من فرط الأسفار إليك ومنكَ ، أُسائل في سكري عنك وفي صحوي . فلتصبح يا أنت أنا محبوبي ، يرهن خرقته للخمر ويبكي مجنوناً بالعشق .

9

مرآة لي كنت ، فصرت أنا المرآة

10

لا غالب إلّا الخمار

صورة للسهروردي في شبابه

1

لو كان البحر مداداً للكلمات لصاح الشاعرُ : يا ربي ، نفدَ البحرُ وما زلت على شاطئه أحبو . الشيب علا رأسي وأنا ما زلت صبياً لم أبدأ بعد طوافي ورحيلي ، فإذا احترق الخيَّام بنار الحب وأصبح في حان الأقدار حجاباً ، فأنا حول النار فراش ما زلت أحوم وأُفني ليلي سُكراً ، أتأمل وجه القمر الفضي الأزرق في صحراء الحب يغيب ، ليترك في أقداح العشاق رماداً . كنت أحبك حتى الموت ، فأين مضى حبك ؟ واعجباً ! قلبي مرتعد كالوَرْقة يسألني : أين مضى ؟ ما أوحش هذي الصحراء ، ولدنا فيها ، أحببناها ورحلنا ، عانينا فيها موت الروح ، حملناها كبريق ذهبي يتغلب هذا الليل عليه ، يموتْ .

كنتِ أريدك لي وحدي ، لكنك كنتِ لكل العشاق
كنتِ تخونين الواحد باسم الآخر ، يا مشروع امرأة ألقيتُ بها في سل الإهمال .
أتأمل وجه القمر الفضي الأزرق في مرآة الحان
أتأمل وجه العشاق

الشيب علا رأسي وأنا ما زلت صبياً لم أبدأ بعد طوافي
ورحيلي في الكلماتْ .
فإذا نُحر الحلاج وأصبح في تاريخ العشق شهيداً ، فأنا لم
أبدأ عرس دمي حتى الآن

2

كنت أُحبك حتى الموت ، فأين مضى حبك ؟ واعجبا !
قلبي مرتعداً كالورقةِ
يسألني : ما أوحش هذي الصحراء
أتوغل فيها مجنوناً ، بالكلمات
أتأمل وجهي في المرآة
وأقول له : ها نحن معاً ، فاكتم أمر رحيلي ، حتى لا
تُنهَب ، يا حادي الأضعان

3

بدم القلب ، كتبت وأشعلت النار
بهشيم الكلمات
لكني لم أبدأ في إشعال النار بقلبي ، حتى الآن

4

يسري سم بعروقي ، قطرات دمي تصرخ ظامئة وتقول

أحبك أو كنت أحبك ، لا أدري الآنْ
فأنا أخبط في ليل وأموت على قدحي ظمآن
حانات العالم تعرفني ومقاهي أرصفة الفجر الأسيان

5

يا من أوقفني ما بين الجسد المشدود كقوس والمُطلَقْ
يا من أوقعني في هذا المأزق
حطّم هذا الزورق
بصخور شواطىء يم الليل الأزرق

6

أعرفها تلك الشطآن ، فمنها أبحر أجدادي للصين وعادوا
مبهورين بأنياب التنين، ومنها أقلع عمال البحر لصيد اللؤلؤ
في بحر الهند وعادوا، أكثر مما كانوا، فقراءْ
أعرفها تلك الصحراء المائية ذات الأثداء
وهي تعري سرتها للشمس الحمراء
أعرفها وأراها كل مساء في حان الأقدار
بجواهر زائفة وعيون من خزف تلك الشمطاء
تغوي الساقي ، فيخون
ويبوح بسر شهيد العشق المقتول

7

أوقفني في باب الممنوعات
« منها » : قال : « الكلمات »
« فتعقلْ في هذا الباب » وغاب

8

ممنوع : أفلاطون
وأرسطو والمتنبي وجلال الدين
في هذا الجحر الملعون

9

يسقط رأسي مقطوعا في طبق السلطان
وأنا لم أبدأ رحلة عمري حتى الآن

مرثية إلى خليل حاوى

(1)

حين انتظر الشاعرْ
ماتت عائشةٌ فى المنفى
نجمةَ صُبحٍ صارتْ :
لارا وخزامى / هنداً وصفاءْ
ومليكةَ كل الملكاتْ
تمثالاً كنعانياً
نار حريقٍ فى أبراج البترولِ
وفى أبيات « نشيد الانشادْ »
ودماً فوق سطور « التوراة »
وجباهِ لصوص الثوراتْ .
صارت نيلاً وفرات
ونذورَ الفقراء
فوق جبال الأطلس ،
قافية فى شعر أبي تمّامْ .
صارتْ بيروتَ ويافا ،
جرحاً عربياً فى مدن الابداع

منذوراً للحبِ
ومسكوناً بالنار.
صارت عشتار

(2)

حين ارتحل الشاعرْ
رسمت خارطةَ الأشياء خُطاهْ

(3)

حين انتحر الشاعرْ
بدأت رحلته الكبرى واشتعلت فى البحر رؤاهْ
وحين اخترقت صيحتُهُ ملكوتَ المنفى
طفق الشعبُ القادمُ من صحراء الحبِ
يُحطم آلهةَ الطينِ
ويبنى مملكة اللّهْ

28-2-1983

مـن أوراق عـائشة

قالتْ : سأَقتلُهُ

وأحمل رأسه لقبيلتى

صنماً ، لتعبدَهُ

وتحرقهُ ، إذا اقتتلتْ

وفى الصحراء أبنى معبداً للحبِ

يحمل إسمَهُ

تأوى إليه الطير ، فى زمن المجاعةِ

أَرتدى الأسمالَ

أعقر ناقتى

فى باب معبده أنوحْ .

قالتْ : سأَحملُهُ

إذا مرتْ عصورٌ

خاتماً فى أصبعى

وأنوح فى جوف الضريحْ

23-1-1987

الينابيع

سأموتُ حباً تحت خيمتِها

أَعود إلى الطفولةِ

راعياً غنمَ القبيلةِ

مثلَ هرون الرشيدْ

ملكاً وسلطاناً

على أَسرَاب مملكة القطا

وقبائل الأمطار في كل الفصولْ

ذهبي : ينابيعُ الحياةِ

وثروتي : قلقُ الوجودْ

ورقـة أخـرى

قالتْ : سأشنقهُ

بِليلِ ضفائرى

مهما أَطَلْتُ الانتظارْ

وأَعيدهُ حجراً على دْرب القوافلِ

سدرةً / شِيحاً وقيصوماً

وزهرةَ جلنارْ

قالت : سأَغرس رمحَهُ المسمومَ

فى عينيهِ

حتى لا يرى ضوءَ النهارْ .

وبكتْ وطال بها الوقوفُ على الطلول البالياتْ

واستنجدتْ بالساحرات

لتعيَدهُ حيّاً ،

ولكن الرياح السافيات

عفّت على آثار أقدام الطريدِ

وأدركَ الليل النهار

23-11-1987

معجزةُ الحب الخالد « لارا »
تنهض من تحت رماد الأسطورة ، عنقاءْ
تتألق نجماً قطبياً
وتهاجر مثل الأنهارْ
تتقمص فى ألواح الطينِ
وفى أختام ملوك « الوركاء »
صورةَ عشتارْ
تصبح معشوقاً أزلياً فى لاهوت العشاقْ
إحدى الربات
تتجلى فى صور شتى
فى أوراق البرديِّ وفى المنحوتاتْ
تُغرى بعبادتها الشعراءْ
فإذا ما عبدوها
صاروا فى الحب لها عُبدانْ .
أَغوتنى
وأنا فى المهد صبىٌّ
لكنى أصبحتُ عليها سلطانْ .

كانت فى الحب ملاكاً

وأنا كنتُ الشيطان

1986

الــولادة

الابداعُ هو الحبْ

والحبُ هو الموتْ

والابداع / الحب / الموت : ولادةْ

فلماذا مات ، إذن ، نيرودا / حكمتْ ؟

ولماذا آخر وردةْ

في شرفة بيتي احترقتْ ؟

ولماذا نجمةُ حبي أفَلَتْ ؟

1984

بستان عائشة

بستانُ عائشةٍ على « الخابورِ »
كان مدينةً مسحورةً
عربُ الشمالْ
يتطلعون إلى قلاع حصونها
ويواصلون البحث عن أبوابها
ويقدمون ضحيةً للنهر في فصل الربيع
لعل أبواب المدينةِ
تستجيب لَهُمْ
فَتُفْتَحُ / كلما داروا
اختفى البستانُ
واختفت الحصونْ .
فإذا خبا نجمُ الصباحْ
عادوا إلى « حلبٍ » لينتظروا
ويبكوا ألف عام
فلعلهم في رحلة أخرى إلى « الخابور »
يفتتحونها
ولعلهم لا يُفلحون

صورة جانبية لعائشة

تُخفي وراء قناعها وجهَ الملاكْ

وملامحَ الأُنثى

التي نضجت على نار القصائدِ

أيقظت شهواتِها ريحُ الشمال

المكتشفـون

يتوجع العشاق فى صحراء وحدتهمْ
يجوبون المساءات الكئيبةَ
حاملين جحيمهم
متوحدينَ / مُهَشمينْ
لبثوا / بفعل تواصل الأزمانِ
فى ملكوتهم / لا يكبرون
شابت نواصى الأرضِ
دبّ الموتُ فى الغاباتِ
فانقرضت
وهم يتفتحون ويُزهرون ويُثمرونْ
وبسحرهم قهروا التعاسةَ
واصلوا الابداعَ
فى صحراء وحدتهم
وكانوا / ما يكونْ

تركوا على أسوار هذا الكونِ
بعض رموزهم
وَهُمُ إلى أرض الكواكب يرحلونْ

فتجوهرتْ تفاحةً / خمراً

رغيفاً ساخناً

في معبد الحب المقدّسِ

أدمنت طيب العناقْ

ظهرت بأحلامي ، فقلت : فراشةٌ

رفتّ بصيف طفولتي

قبل الأوانْ

وتقمصت كل الوجوهِ

وسافرت / بدمي تنام .

قديسةٌ تنسل في جوف الظلام

لتعانق الصنم المُحَطمَ

تنشب الأظفار في الحجر / الحطامْ

ياقوتةٌ / فَمُها / تشع طريةً /

نارُ الحقول /

ضفائرٌ معقودةٌ /

عينان تضطرمان من فرط الحنان

وجه وراء قناعه ، يُخفي « مدائن صالحٍ »

وحدائق الليمون في أعلى الفرات

أمضيتُ صيف طفولتي

فيها ، وأدركني الشتاء

وحملت فِي منفايَّ بعد رحيلها

ذهبَ القصائد والرماد

1988 - 1987

طفولة شاعر

عائشةٌ بنت السلطان

كانت من أعلى نافذة في قصر السلطان

ترنو لخيول السلطان

وعبيد السلطان

كانت ترشقني ـ وأنا أبكي

تحت النافذة العليا

مكسورَ القلب ـ بوردةْ

لكنّي أتجاهلها ،

وأقول لنفسي

وأنا أبكي في حرقةْ :

ماذا لو أسرجت حصاني وغزوتُ البلدةْ

1985

سـر النـار

فى آخر يوم ، قَبَّلْتُ يديها

عينيها / شفتيها

قلتُ لها : أنت ، الآنْ ،

ناضجةٌ مثل التفاحة

نصفك : إمرأةٌ

والنصف الآخر ليس له وصفٌ

فالكلمات

تهرب مني

وأنا أهرب منها

وكلانا ينهار

لطفولة هذا الوجه القمحي

وهذا الجسد المشتعل الريان

أبتهلُ الآن

وأقرّب وجهي

من هذا النبع الدافق ، ظمآنْ .

في آخر يوم ، قلتُ لها :

أنتِ حريقُ الغاباتِ

وماءُ النهرِ

وسرُّ النارْ

نصفكِ ليس له وصفٌ

والنصف الآخر: كاهنة في معبد عشتارْ

27-5-1986

مملكة الشاعر

مملكة الشاعر حاصرها الأعداء
دهموا بوابتها
ذبحوا ، بسيوف الغدر ، الحراس
نصبوا مشنقةً في ساحتها
وأقاموا الأعراس
شقوا صدر الشاعر
لم يجدوا في داخله
إلا مقبَرةً ، كان الثلج يغطيها
وأسامي معبودات مُسحتْ
وأُزيلتْ
من فوق قبور جرفتها ، الأمطار
وقصائد حب جعلوها بعد الأعراسِ
طعاماً للنار
حكموا بالنفي على الشاعر بعد الموتِ
أقاموا حول المنفى ، الأسوار

الفهـــــرس

انتهى طبع هذا الكتاب
بالمطبعة الأساسية – بن عروس

لكنّ للحبّ لدى البياتي سرًّا دفينًا، ولُغْزًا لا حلّ له، وأفاقا غامضة، ما أشرقت إلا لتظلم، وما أظلمت إلا ليحلم فيها بالنّور والشمس: تلك الآفاق التي يتعانق فيها الحبّ والسّلطة والسياسة. فهل يكون الحبّ مدْخلاً لهما، أم أن الحبّ هو جوهر الأشياءِ ولبّها، فإذا الحبيبة ووجْهها رمزان أبديّان للوطن والحريّة، وإذا التوحّد بين الشاعر والوطن بلوغٌ، والصّراع من أجله مقصَدٌ وغاية، والبوح بالأسرار دروبٌ إليه، والإبتعاد عنه هجر وموت وقتل، أو نأي ونفي، والشاعر كالمتسوّل يسعى "إلى مدنٍ بلا فجر، ينادي باسم الوطن في شوارعها، ويسأل عنه الريح فيجاوبه الظّلام والسّكون، وترتد إليه الصّور في المرايا موتًا وعقْمًا. فلا الترحال يتوقف، ولا الحبّ يَفْتُرُ.

الثمن : 6,000 دت

ISBN. 9977 - 763 - 85 - 8